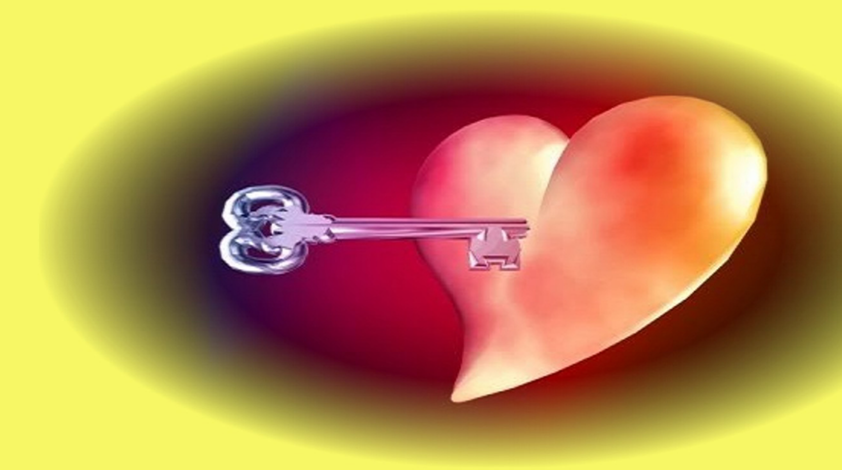
اعترافاتــي



الجزء الأوّل

مكاريوس جبّور

٢٠١٨



طبعة أولى
حلب
تشرين الأوّل
٢٠١٨

اعترافاتي

الجزء الأوّل

مكاريوس جبّور

٢٠١٨

فهرس المحتويات

مقدّمة

لمّا كان "السلام" محور تعليم ربّنا وإلهنا وخلّصنا يسوع المسيح وهدفه الرئيس، لأجل ذلك لم يخلو نصّ في العهد الجديد من حديثه عن "السلام" والدعوة إليه.

وقد شعر الرسل، وبعدهم آباء الكنيسة بعِظَم حاجة بني البشر للسلام، فصاغوا الرسائل والصلوات التي دعت معظمها إلى السلام، واحتوت على ابتهالات إلى الله ليمنح العالم السلام.

وكأنّي بأقوال يسوع وبنصوص كلّ من الرسل وآباء الكنيسة قد ربطت الإيمان والمحبّة والرجاء بالسلام، فلا إيمان بدون سلام، وكذلك لا محبّة ولا رجاء.

وبكلّ أسف، لم يعرف العالم، منذ قديم العصور وحتّى يومنا الحاليّ، هذا "السلام" الذي تكاد جميع النصوص الدينيّة والقانونيّة والاجتماعيّة والسياسيّة تكتظّ من الدعوة إليه والحثّ عليه، ولا يزال العالم يعيش حالات من الحروب المتنوّعة تقضّ مضجع كلّ فرد من أفراد الجنس البشريّ وتحرم، الشعوب من العيش بهدوء وهناء.

نعم، نفتقد جميعًا إلى هذا "السلام". نفتقد إليه في داخل كلّ فرد منّا، وفي أسرنا ومجتمعاتنا وبلداننا، وفي جميع مؤسّساتنا. ونعيش جميعنا، كلّ على طريقته وبحسب أسلوب تربيته، حالة حرب، إمّا مع ذواتنا، أو مع زوجاتنا أو أزواجنا، أو أولادنا، وإمّا في عملنا أو مع رؤسائنا، وإمّا في أوطاننا ومع مناهج حكّامنا في القيادة والسياسة. ويبقى "السلام" الغاية المنشودة التي يُجمع البشر على السعي لأجل إحلالها، ويجتمعون حولها كمسلّمة في كلّ حوار.

وعندما يفقد المرء هذا "السلام" في داخله، لأيّ سبب من الأسباب، تصبح حياته ألمًا متواصلاً وبحثًا حثيثًا عن إشباع هذه الحاجة التي فقدها. وإذا استمرّ في فقدناه لحالة السلام، فهو ينقله إلى بيته وأولاده، ومنهما إلى مجتمعه وبلده. وكم يكون الأمر مضرًّا عندما يفقد قائد سلامه، أو تخسر مؤسّسة داعية إلى "السلام" العنصر الذي لأجله نشأت واستمرّت ولا تزال!

انطلاقًا من ذلك، أردتُ أن أضع كتاب اعترافاتي كإنسان طالما حاول أن يزرع "السلام" في داخله، تارة بقواه الذاتيّة، وأخرى باعتماده على العلم والثقافة، وطورًا باتكاله على هذا أو ذاك، وهو عالم، منذ البداية، أن لا سلام إلاّ في المسيح وبه ومعه.

سأحاول أن يكون كتاب اعترافاتي هذا صادقًا وشفّافًا ونقيًّا، لأنّ الغاية منه دعوة إلى كلّ مَن يقرأه إلى النقد الذاتيّ البنّاء، ومحاولة طوي صفحات الألم والشقاء والمرض، وجميع ما يمكنه أن يكون قد أفقده هذا "السلام" مع ذاته ومع محيطه.

ولن أتطرّق إلى ذكر أسماء أو أماكن أو تواريخ احترامًا منّي لقدسيّة الهدف الذي أبتغيه. وفي حال استعملتُ بعض الأسماء عرضًا، فذلك ضمن إطار الفهم الأعمق للأحداث.

سيكون عملي هذا روحيًّا، وسيحتوي على نقد لذاتي ولأعمالي ولمواقفي وأفعالي. وأتوسّل إلى الروح القدس أن يكون حارسًا لفهمي ورقيبًا على باب شفتيّ. وأترك لكلّ مَن يقرأه أن يتأمّل ذاته، ويحاول سبر غور أعماق قلبه ليُساءِل نفسه أين أنا من المسيح؟ وهل سيّد السلام هو وحده سيّد قلبي ونفسي وحياتي؟

الفصل الأوّل

طفولتي

سأحاول تذكّر تفاصيل حياتي كطفل، منذ ولادتي وحتّى الحادية عشرة من عمري، إذ يصعب عليّ أن أتذكّر تفاصيل هذه المرحلة بسبب تركي المبكر لمنـزل والديّ والذهاب إلى المدرسة الداخليّة. ولن أتطرّق إلى حياة والدي بشكل مفصّل، ولو كانت تستحقّ وحدها كتابًا خاصًّا.

بدأتْ حياة والديّ بشكل دراميّ ومحزن بسبب عدم حصولهما المباشر بعد الزواج على ابن. ودام الأمر لسنوات قبل أن تحبل والدتي بأختي الكبرى التي توفّيت بعد ولادتها بستّة أشهر بسبب إصابتها بمرض غامض. سبّب الحدث مأساة كبرى لوالديّ وتعرّض زواجهما لهزّة عنيفة كادت تصل بهما إلى الانفصال. وتدخّل الأصدقاء والمحبّون لحلّ المشكلة. وكان لا بدّ من التعاطي مع هذا الأمر بالاتكال على الله الذي وحده يُعطي الأبناء لِمَن يشاء.

كان والدي رجلاً قد أصبح من ذوي المال والشهرة بعد فقر وعذاب كبيرَين، واستطاع أن يبني شخصيّته الخاصّة التي اتّسمت بالجدّ والحزم من جهة، والحنان والطيبة من جهة أخرى. وكان من المهتدين الحديثين إلى الإيمان بالمسيح.

اشتهر والدي بالصدق والشفافيّة والدقّة في عمله، وجمع حوله عددًا كبيرًا من الأصدقاء خاصّة من المسلمين الذين كانوا "يحلفون برأسه" ويسمعون لنصائحه ومشوراته، ويتعاونون معه في صناعة المثلّجات وبيعها.

أمّا حياته فكانت عملاً وصل فيه النهار بالليل. ولم يطل به الأمر حتّى أدخل والدتي إلى رحابه فصارت تُحضّر له الفاكهة التي يُصار إلى تصنيعها "بوظة"، (كانت جميع المواد طبيعيّة وصحيّة).

ولمّا كان والدي حديث العهد في الإيمان، فلطالما رأيته يقرأ الكتاب المقدّس بمفرده بدون أن يشرح له نصوصه أحد. وبدأ يكوّن مفاهيمه الخاصّة للنصوص الكتابيّة.

وضمن هذا الإطار قرّر، تشبّهًا بالأنبياء وببعض مسيحيّي عصرنا، أن "ينذر" للربّ، وأن يُقسم بتقديم الهبات المتواصلة حتّى آخر يوم من حياته، إذا استجاب الربّ طلبه، ومنحه ابنًا "ليصرف عنه العار بين الناس" (اقتباس عن قول أليصابات. راجع لوقا ١: ٢٥). وسيكون موضوع هذا النذر الذي قام به والدي بمفرده موضوع خلاف طويل الأمد بينه وبين والدتي. وسيكون مصير جزء كبير من ثروته في الجمعيّات الخيريّة ودور الأيتام ومشاريع بناء الكنائس والأوقاف.

لم تمضِ أشهر قليلة على نذر والدي حتّى حبلتْ والدتي بابنها، الذي صار البكر. وبالفعل "اختبأت عدّة أشهر" (اقتباس عن حبل أليصابات. راجع لوقا ١: ٢٤)، بسبب حجم بطنها حتّى إنّ كلّ مَن كان يراها من المسيحيّين كان يصرخ "باسم الصليب، روحي تخبّي"، ومن المسلمين "اللهم صلّي على النبي، روحي يا حرمة لبيتك ما تنصابي بالعين!".

وفّر الزوج الثريّ لزوجته جميع أسباب الراحة والرفاهيّة. وكان يجلب لها من المآكل ما لذّ وطاب، وبأغلى الأثمان، فكاد بطنها يلتصق بحلقها.

وبعد تسعة أشهر، أبصرتُ النور، فقدّم والدي لوالدتي هديّة المولود تلفزيونًا، وكانت مثل هذه الهديّة نادرة وباهظة الثمن.

ووقعت المشكلة حول اختيار اسم المولود الجديد الذي كان آية في الجمال، كما أخبروني. وأصرّ والدي على اسم "عطا الله" لأنّ المولود عطيّة من الله. وعلى الرغم من رفض والدتي، راح وسجلّ المولود في دوائر النفوس باسم "عطيّة".

أمضيتُ عمري أكره هذا الاسم، وأتحاشى لفظه، وسأضع أسباب كرهي لاسمي في سياق السرد.

كان لا بدّ للرجل الثريّ من أن يمنح بكره كلّ نوع من أنواع الرعاية والاهتمام، وحصلتُ على دلال جميع أفراد أسرة كلّ من والدي ووالدتي والأصدقاء والجيران، والمسلمين قبل المسيحيّين.

ذاق لساني كلّ نوع من طيّبات هذه الأرض. فقد كان والدي يستورد الحليب من إنكلترا لتغذيتي، ناهيك عن جميع أنواع الأطعمة التي تُعطى للأطفال، ويذهب خصّيصًا إلى بيروت لكي يجلبها لي. أمّا عن الألعاب فحدّث بلا حرج. حتّى صرتُ موضع حسد كثيرين.

ومنحني الله ذكاءً فطريًّا نادرًا حتّى إنّي، كما أخبروني، بدأت بالكلام وأنا ابن ثمانية أشهر.

وبما أنواع الأطعمة والأغذية التي أُعطيتها كانت عالية الجودة وأثّرت على نموّ بنيتي الجسميّة، فقد صرتُ أوحي بسنّ مختلفة عن سنّ الحقيقيّة، والدليل على ذلك أنّه أدخلني المدرسة ابن سنتَين ونصف.

كانت والدتي قد حبلتْ وأنجبت أخي الثاني الذي لم ينل ما نلته من الدلال. طبعًا لم يُحرم من شيء.

أدخلني والدي مدرسة الأمل الخاصّة، وكانت بين أشهر مدارس في حلب. ولم يمضِ وقت قصير حتّى بدأتُ أعي ما كان يدور حولي.

وكانت صدمتي الأولى باسمي الذي صار محطّ سخرية رفاقي، وبقي كذلك طوال سنوات دراستي الابتدائيّة. وصرتُ أصرخ في وجه والديّ لاختيارهما لي اسمًا مؤنّثًا.

عشتُ طفولة طالما حلم بها كلّ صبيّ، فلم يترك مكانًا إلاّ وأخذني لزيارته، ولم أكن أشتهي شيئًا إلاّ وأحضره لي.

ولمعتُ في المدرسة حتّى صرتُ مضرب المثل بالذكاء والأدب والجمال.

كانت جمعيّات التعليم المسيحيّ ومدارسه في عهدهما الذهبي، وهكذا حصلتُ، أنا وأخي، على تربية مسيحيّة متينة.

وواظب والدي، على قراءة نصوص الإنجيل على مسمعي، كلّ ليلة قبل النوم، وكانت يقصّ عليّ أخبار القدّيسين، حتّى لفتُ أنظار أساتذة التعليم المسيحيّ والكاهن المرشد بسبب أجوبتي على الأسئلة الخاصّة بهذه المواضيع.

لطالما مارس والدي معي سياسة غريبة لم أفهمها إلاّ بعد سنوات، وتمثّلت في اصطحابي كلّ أحد إلى كنيسة معيّنة للمشاركة في القدّاس. فمرّ بي على جميع كنائس حلب من مختلف الطقوس، حتّى إنّني سرعان ما حفظت نصوص القداديس: البيزنطي والسرياني والماروني والأرمني والكلداني. وأكمل خطّته، انطلاقًا من صداقاته مع جميع الكهنة، فجعلني أقرأ الرسالة في القدّاس، إضافة إلى خدمة القدّاس مع سائر الأولاد. في البداية، كنتُ أخجل كثيرًا وأنا ابن السادسة عندما أقف لقراءة الرسالة، أمّا هو فكان يفتخر عندما يخرج الناس من القدّاس ويُهنّئونه على هذا الابن النجيب الذي يُتقن فنّ القراءة واللفظ الحسن بدون أخطاء نحويّة.

لم أكتشف نيّته إلاّ بعد سنوات، لأنّه كان قد عزم أن يترُك للعناية الإلهيّة أن تختار لي الكنيسة التي سأكون فيها كاهنًا.

لا أزال أذكر حتّى اليوم حادثة معرفتي "لطائفتي" لأوّل مرّة. كنّا نتابع دروس التعليم المسيحيّ . وكنتُ قد بلغتُ السابعة من عمري عندما سألني وأخي الأب المرشد: ما هي طائفتكما، فلم نعرف الجواب. عندئذ طلب منّا أن نسأل والدنا ونردّ عليه الجواب. عدنا إلى البيت وطرحنا السؤال على والدي فأجاب: إنّنا ننتمي إلى كنيسة السريان الكاثوليك.

هكذا صار، وفي الأسبوع التالي أخبرنا المرشد عن "طائفتنا"، فبعث معنا كتابًا إلى أحد كهنة كنيسة السريان الكاثوليك يُعلمه فيه بأنّنا من أبناء كنيسته، ويطلب منه تحضيرنا "للقربانة الأولى"، كما كان يُطلق عليها آنذاك.

كانت تلك السنة حاسمة في حياتي، وسرعان ما اشتدّ تعلّقي بهذه الكنيسة لما رأيتُ فيها من نماذج لكهنة اعتبرتهم ولا أزال قدّيسين أمثال الأباء الراحلين بولس صبّاغ، وليون عبد الصمد، وجورج موصلّية.

واستغلّ أبي صداقته بالكهنة وانتماءه لأخويّة العمّال ليوطّد هذه المحبّة التي لمسها فيّ تجاه كنيسة السريان الكاثوليك. وزاد ذلك من تردّدي إلى هذه الكنيسة وتعلّقي بكهنتها، ثمّ بأسقفها الراحل المثلّث الرحمة المطران فيليب بيلوني الذي جذبتني عظاته وأحاديثه.

امتاز تكوين شخصيّتي، في هذه المرحلة على ما أذكر، برهافة الحسّ وسرعة البديهة وطيب القلب وكرم غريب نادر.

وبغية تفوّقي المستمرّ وضع والدي لي أساتذة لتلقيني الدروس. أمّا أخي فلم يكن يأبه لأمر المدرسة والعلم حتّى إنّه كثيرًا طُرد من صفّه بسبب كسله.

أمّا المرحلة الثانية من طفولتي، كما خطّط لها والدي، فاتّسمت في كونه جعلني أمضي فترة فصل الصيف بين معمل "البوظة" ودار الأيتام.

في تلك الفترة، كانت دور الأيتام رائدة بدورها، وعدد الأيتام كبيرًا. فكان والدي يُرسلني إليها لأساعد الكاهن المسؤول في أمور الأطفال. حتّى إنّه جعلني أمضي شهرًا كاملاً مع اليتامى نائمًا بينهم وعائشًا معهم. وهنا نشبت حرب ضروس بينه وبين والدتي التي كانت تستهجن تصرّفاته، وتسأله ما الذي يريده من هذا الطفل. أمّا هو فطالما أسكتها قائلاً: "شوفي شغلك، وما تتدخّلي بتربيتي".

وكان الأب جورج موصلّية المسؤول عن دار الأيتام رئيس تحرير مجلّة كنيسة السرياني الكاثوليك، وسرعان ما أخذ يطلب منّي مساعدته في ترتيب المجلّة ووضعها في مغلّفات وكتابة عناوين السادة التي ستُرسل إليهم. ولاحقًا رأيتني، وأنا في الثامنة من عمري، أذهب إلى مقرّ البريد لأُرسلها إلى أصحابها.

لم يطل الأمر حتّى عرض عليّ الأب جورج موصلّية أن آخذ قسمًا منها وأوصله أنا لأصحابها لقاء بدل ماليّ لا أذكر مقداره. وفعل ذلك بقصد توفير أجور البريد من جهة، وسرعة وصول المجلّة من جهة ثانية.

كان لا بدّ لي من طلب إذن والدي الذي سرعان ما بارك هذا العمل وشجّعني على إتمامه.



أمّا عملي "كساعي بريد" فكان شاقًّا جدًّا، ولكنّها كانت أوّل خبرة لي في مجال التوثيق. وهكذا بدأتُ أحفظ الأسماء والعناوين والشوارع التي ذهبتُ إليها للمرّة الأولى في حياتي. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتّى صرتُ المسؤول عن بريد المجلّة.

أمّا خبرتي مع الأطفال اليتامى فقد صقلتْ فيّ روح العطاء، ولكنّها احتوت على أوّل خبرة لي مع "الشرّ" إذا صحّ التعبير. فقد وُجد من بين مَن عرفتهم يُدخّنون ويتصرّفون بقلّة أدب، وتعرّضت معهم للوقوع في أوّل محاولة للتدخين، غير أنّ ردّة فعلي كانت سلبيّة ورفضت مباشرة مثل هذه الأعمال. أضف إلى ذلك، أنّي شعرتُ، وللمرّة الأولى في حياتي بأوّل "نفور" من إنسان ألا وهو "طبّاخة" الميتم التي لم أرتح لها بسبب تسخيرها إياي للقيام بحمل الخضار والفاكهة واللحوم من الأسواق إلى الميتم. وكم كنتُ أحاول التملّص والهرب منها. كان ذلك أوّل شعور بالذنب اخترق قلبي.

بقيتْ إيجابيّات خبرة الميتم أقوى من سلبيّاته. فقد لمستُ البئس والفقر في كثيرين. وهكذا استعنتُ بصديق لي كان اسمه الياس آدم، وأخذنا الإذن من الكاهن لنضع صينيّة في آخر الكنيسة نجمع فيها التبرّعات لنوزّعها على الفقراء.

بدأت الصورة بالاكتمال في رأس والدي، وصار يُكلّم أصحابه من رجال الأخويّة، "ليجسّوا نبضي" بشأن موضوع الكهنوت. لم أكن أفهم شيئًا من كلامهم، بل كنتُ أُعجب بذلك ولا أُبدي رفضًا، إلى أن فاتحني والدي بالأمر، فقبلتُ بدون تردّد.

خلال هذه الفترة بدأت تظهر منّي تصرّفات غريبة أثارت حفيظة والدتي، فكنتُ أعود إلى البيت وأضع شرشفًا على كتفيّ وأُحضر كأسًا من الماء وقطعة من الخبز وأبدأ بالقدّاس.

خلال هذه الفترة أبصرت النور أختي الوحيدة بعد سنوات من محاولات إنجاب باءت بالفشل.

جنّ جنون والدتي التي كانت تحلم بأن أكون طبيبًا بسبب حدّة ذكائي. وبدأ الصراع بينها وبين والدي حتّى وصل إلى الضرب أكثر من مرّة.

في غضون ذلك، كلّم والدي المطران الراحل فيليب بيلوني في موضوع إرسالي إلى المدرسة الداخليّة لتحضيري للكهنوت، غير أنهّ رفض قبل حصولي على شهادة البكالوريا.

خلال هذه الفترة كانت أحوال والدي الماديّة بدأت تتراجع بسبب التأمين من جهة، وبسبب خيانة شريكه رحمه الله (بدون قصد دينونة أحد) كما أخبروني لاحقًا. وتمّ إغلاق معمل "البوظة"، وبقي والدي بدون عمل مدّة تزيد عن السنة كان خلالها يأكل من "اللحم الحيّ" كما يُقال.

وشاءت الظروف أن يُعيّن في حلب كاهن من كنيسة الروم الكاثوليك، هذا رحمه الله كان مسؤولاً عن جمع الدعوات للحياة الرهبانيّة.

لا أذكر كيف تعرّفتُ عليه، ولا أعلم كيف أتى إلى بيتنا، يُقال إنّ سيّدة من الأخويّة، رحمها الله، كانت من عائلة شحّود، هي التي بعد أن لمستْ فيّ هذه الخصال أرسلته إلى بيتنا، والله أعلم.

زارنا الكاهن المسؤول عن جمع الدعوات، وبعد أن طرح عليّ بضعة أسئلة، طلب منّي الحضور إلى المركز "الفلاني" لإجراء امتحان لي. وهكذا كان، وقُبلت للدخول إلى المدرسة الداخليّة في لبنان.

كانت الحرب في لبنان مستعرة ونشرات الأخبار تعجّ بأخبار القذائف والقتلى. أُيعقل لأمّ ربّت ابنها بدموع العين وسهر الليالي أن تُرسل ابنها (طبيب المستقبل ورافع رأس العائلة) إلى حيث القتل والموت والدمار!

كان الصراع شديدًا بينها وبين والدي، وتدخّل القريب والبعيد في محاولة لثنيه عن عزمه، ولكن بدون جدوى.

وفي الموعد المحدّد انطلقت السيّارات لتأخذ أربعًا وعشرين طفلاً من حلب إلى لبنان.

أُصيبت والدتي بانهيار عصبيّ وأُدخلت المستشفى، وبقي الخلاف بينها وبين والدي حول هذا الأمر حتّى كانون الثاني سنة ٢٠١٠، عندما اعترف لها بأنّه قد أخطأ بحقّي، وأنّه لم يكن يتوقّع أن أُعاني ما عانيته في حضن الكنيسة.

قبل انطلاقي إلى لبنان، جلس والدي معي مطوّلاً وجعل يُحذّرني وينصحني ويُفهمني أسرار الحياة. ولأوّل مرّة فتح معي مواضيع تتعلّق بالحياة الجنسيّة والعادة السريّة وصحبة رفاق السوء والحذر من المعاشرات الرديئة والطاعة للرؤساء.

لا أنسى كم انـزعجتُ من حديثه وأظهرتُ له كلّ استياء، وهو يُردّد على مسامعي: ستتذكّر كلامي يا بني.

يا ربّ، لا أزال أجهل تدبيرك الخاصّ بحياتي! لا أزال أسأل: هل قبلتَ فعلاً نذر والدي أم إنّ جميع هذه الأحداث لم تكن سوى مجموعة من الصدف!

بعد حياة من الطهارة والنجاح والذكاء والدلال والبحبوحة قدتَ خطاي إلى حيث الألم وفقدان "السلام" وخسارة أهلي! هل أنت اخترتني فعلاً! لا أزال أجهل الجواب على هذا السؤال.

بعد طفولة ناجحة ومليئة ببراءة الإيمان ونقاوة الصلاة وبساطة العطاء، دخلتُ المدرسة الداخليّة للتنقلب حياتي رأسًا على عقب.

يا إلهي، ليتني بقيتُ ذلك الطفل.







الفصل الثاني

سنوات الضياع

عندما كنّا صغارًا، في عصر كانت لا تزال للبعض القيم الاجتماعيّة والأخلاقيّة من مكانة بين الناس، كان من المفروض على الصغار عدم الجلوس في محضر أحاديث الكبار، وبالتالي عدم الاستماع إلى أحاديثهم.

ينطبق هذا الكلام على ما سأعرضه في هذا الفصل، ولكن بفارق واحد: المقدرة على عدم التأثّر ببعض الحقائق التي قد تُشكّك مَن يقرأها.

سبق أن تكلّمتُ في الفصل الأوّل عن عالم يعيش بدون "السلام"، والآن أرى من الضروريّ أن أتوقّف ولو لبرهة عند فهمي للأحداث والمواقف، وسردها بطريقة موضوعيّة من جهة، وبأسلوب أقلّ ما يمكن القول عنه إنّه إنجيليّ ومفعم بروح التسامح والمحبّة.

ليس من السهل على بني البشر أن يتوصّلوا إلى المغفرة والمسامحة، خاصّة وأنّ في ضمير كلّ فرد أو جماعة، مجموعات هائلة من المآسي التي ترافقهم طوال حياتهم. وكم من بين هذه المآسي ما يقضّ مضاجع كثيرين!

عندما يبدأ المرء بالبحث عن أسباب الخطأ والشرّ والظلم، يصل أحيانًا إلى طريق مسدود يؤدّي به إمّا إلى إيمان أعمق، أو إلى إلحاد جذريّ لا ينتهي إلاّ بنهاية حياته.

تأصّلت ظاهرة فقدان "السلام"، التي هي واقع حقيقيّ يطغى على عالمنا منذ أجيال، في نفوس البشر ومجتمعاتهم وأفكارهم وطرق تعبيرهم وأساليب عيشهم الخ... حتّى إنّها انتقلتْ إلى جيناتنا، فصرنا نرث الآفات مع الولادة، وفي هذه الحال يُصبح موضوع "الحكم" على المذنب أمرًا شائكًا ومعقّدًا قد يصل بنا أحيانًا إلى الماورائيّات.

"مَن أخطأ، أهذا أم أبواه حتّى وُلد أعمى؟" والجواب "لا هذا أخطأ ولا أبواه، ولكن لتُظهر أعمال الله فيه" (يوحنّا ٩: ٢-٣)، ويكون الاستنتاج الطبيعيّ، لِمَن لا سلام في قلبه أنّ الله مصدر جميع الشرور على وجه البسيطة. طبعًا لا أقول هذا كمَن يُعطي عقيدة أو ينتقد نصًّا مقدّسًا، بل أنطلق من هذا النصّ كمثل لكي أقول: مَن المسؤول عن جُرم إنسان تربّى في بيت مفكّك ومع أسرة يسُيطر عليها البؤس والفقر وانعدام الأخلاق والقيم؟

لا يمكن لقاضٍ عادل أن يدين مثل هذا المجرم قبل أن ينظر في الأسباب التي أوصلته إلى هذا "الانحراف" الكبير. وبالتالي، يكون بيته مسؤولاً عمّا آلت إليه حاله. وتنطلق سلسلة التحليل عن الأسباب الكامنة وراء انحرافه، ويتمّ إرجاع الأسباب إلى سابقاتها، أي إلى جدّه، ومن الجدّ إلى جدّ الجدّ، هكذا ودواليك.

والحقيقة أنّ الرجل الحكيم لا يمكنه أن يحقد على إنسان سرقه، أو آخر انتهك حُرمة بيته، أو ثالث اغتصب ماله أو عرضه أو أرضه. يقعّ الفعل المباشر على الفاعل المباشر، غير أنّ سلسلة من الأسباب الهائلة الكمّ والنوع قد أوصلت هذا الإنسان إلى ما وصل إليه من انحراف.

هكذا يجب أن نقرأ حياتنا، وهذا هو السبيل الوحيد لكي نغفر ونصفح عمَّن تسبّب إلينا بأذى خطير وجرح عميق غير قابل للاندمال.

ولكن، أيُعقل أن يكون "الشرّ"، إذا صحّ التعبير، قد تأصّل في أبناء آدم حتّى أصبح من المستعصي استئصاله إلاّ بجريمة قتل جماعيّة تودي بحياة الملايين، ولا تُميّز بين مذنب وبريء؟ هذا ما نراه في حادثة الطوفان وفي غيرها من قصص العهد القديم.

لطالما تأمّلت لسنوات في هذه الوقائع. وتوصّلت إلى الاقتناع بعدم وجود "خطيئة" فرديّة يقترفها إنسان ما. ووصلتُ أحيانًا إلى تبرئة كلّ مذنب اقتناعًا منّي بأنّ لا أحد مسؤول بشكل مباشر عمّا يصدر عنه من أفعال "شريرة" إذا صحّ التعبير.

الكذوب، بغضّ النظر عن تربيته، لديه أسبابه للكذب، وإذا فكّرت بها تجد وراءها خوفًا أو انعدامًا للثقة بالذات، أو سوى ذلك من الأسباب. والأمر ينطبق على كلّ منحرف.

وإذا أردنا إقحام علم النفس التحليليّ في مقاربة مثل هذه المواضيع ومعالجتها، تكون النتيجة أنّ لا أحد مسؤول عن انحرافه، وأنّ هناك دائمًا مسبّب إلى ما لا نهاية. وإذا عدنا بالسلسلة إلى الوراء قد نصل إلى أنّ الله مصدر جميع الشرور، لأنّه لا يمنعها، ولا يُوقف مسبّبيها، وحاشى وكلاّ أن يكون الله كذلك تمجّد اسمه.

هكذا وجدت البشريّة شبحًا غريبًا أطلقت عليه اسم الشيطان، وجعلته أصل جميع الشرور. وهنا لا أرغب في الدخول في مجدلات لاهوتيّة لا تختصّ بالموضوع الذي أعرضه.

قادتني أفكاري، في كثير من الأحيان، إلى الاقتناع إلى أنّ الطريقة المثلى لإبطاء مسيرة البشريّة في طريق الشرّ تكمن في منع الزواج والتوقّف عن التوالد، إذ سيكون كلّ طفل يولد على وجه البسيطة ضحيّة للشرّ وسيُصبح سببًا لشرّ أعظم منه إلى ما لا نهاية. وستصل البشريّة في مرحلة قريبة إلى مأساة لا يعرف نتائجها إلاّ الله وحده.

القتل والنصب والاحتيال والتدمير والكذب والزنى واغتصاب الأطفال والمتاجرة بهم، وإلى ما هنالك من سلسلة من الشرور تبدأ ولا تنتهي، مَن المسؤول عنها ماورائيًّا اليوم؟ ومَن يستطيع إيقافها سوى صلب جديد للمسيح؟ وإذا أصبح جميع البشر "أشرارًا" أو تحت "سلطان الشرّ"، فمَن هو الشخص الذي يحقّ له أن يُصدر أحكامًا تُعاقب غيره، أو على حدّ قول المثل "يلّي بيتو من قزاز ما بيرشق بيوت الناس بالحجر".

وإذا أخضعنا مروّجي فكرة نهاية العالم سنة ٢٠١٢، أو في غير هذا الموعد، إلى التحليل النفسيّ نجدهم من ذوي الرجاء الكبير بتنظيف العالم من سلطان هذا "الشرّ".

المهمّ في كلّ هذه المقدّمة المعقدّة هو الوصول إلى الاقتناع بأنّ تطهير العالم من "الشرّ" أو الظلم، يحتاج إلى عنف أكبر منه. وليس بالضرورة أن يكون العنف قتلاً أو إبادة جماعيّة، بل يمكن أن يكون عزلاً لسلطات موجودة قد أفسدها "الشرّ". من هنا لا يمكن إصلاح مؤسّسة دينيّة أو روحيّة أو اجتماعيّة انحرفت عن طريق "السلام" لا بالثورة كما فعل لوثر وأتباعه، ولا بالرجاء السلبيّ الذي ينتظر تدخّلاً إلهيًّا يصنع معجزة، بل بتجريد هذه المؤسّسة من كلّ سلطان لها وعزلها وإرسال أصحابها إلى مصحّات يُعالجون فيها.

لنا في مثل هذا الحلّ مثال يتجسّد في ما بدأت تفعله الكنيسة الكاثوليكيّة مع البابا الحاليّ بندكتوس السادس عشر.

نعم، يحتاج العلاج إلى الجرأة والمثابرة، وعدم التذرّع بالشكّ والخوف من الفضائح لأنّ المسيحيّة دين الشجعان.

بعد هذه المقدّمة أريد من القارئ أن يسير معي في مسيرة الصفح والغفران التي تعبتُ جاهدًا للوصول إليها. لا سلام بدون حرب. وأخطر الحروب هي تلك النفسيّة والروحيّة حيث يجب أن يكون المرء الطبيب الأوّل لذاته.

إنّي أُبرّئ من أيّ ذنب كلّ مَن أساء إليّ أو إلى رفاقي، وكنّا أطفالاً أنقياء اغتُصبنا نفوسًا وأرواحًا وعقولاً وأجسامًا.

السنة الأولى في المدرسة الداخليّة

انطلقت بنا السيارات من حلب باتجاه لبنان. كلّ ما أذكره من تلك الرحلة أنّ الطريق كانت طويلة وشاقّة، وأن أحد رفاقي أُصيب بألم شديد في أحد أسنانه عانى منه طوال الطريق.

وما إن قطعنا الحدود، وبدأنا السير في الأراضي اللبنانيّة، حتّى بُهرت من منظر الدمار في الأبنية والمنشآت، وذُهلت من جمال الطبيعة الخلاّب.

وصلنا منهكين إلى مكان إقامتنا في المدرسة الداخليّة، وكان في انتظارنا الرئيس المسؤول، وهو رجل في منتصف العقد الخامس من العمر. كان رجلاً يوحي بالرصانة والجدّ. وترك عندنا انطباعًا سلبيًّا لمجرّد النظر إلى وجهه العابس.

أدخلنا إلى مهجع جماعيّ، وطلب منّا ترتيب أغراضنا، كلّ في الخزانة المخصّصة له، وتحضير أسرّتنا. وبعد الاغتسال ذهبنا إلى قاعة الطعام لتناول العشاء.

في تلك اللحظة بالذات كان الصمت مخيّمًا على جميعنا، وكأنّ كلّ فرد منّا قد شعر بالندم على مجيئه إلى هنا.

أذكر أنّه قرأ علينا برنامجنا اليوميّ الذي لا أتذكّر منه سوى ساعة الاستيقاظ (السادسة صباحًا)، ثمّ عمل يدويّ ودرس، ثمّ غداء وقيلولة، ثمّ صلاة فعشاء، فمشاهدة التلفزيون لفترة غير طويلة فالعودة إلى المهجع للصلاة والنوم على الثامنة والنصف مساءً.

لم يكن أحد منّا يعرف الآخر قبل وصولنا إلى المدرسة الداخليّة، ووجب على الوقت أن يحلّ هذه المشكلة.

أمضينا الأسبوع الأوّل بين الحنين إلى الأهل والتأقلم مع الواقع الجديد. لم تكن من اتصالات مباشرة أو غير مباشرة مع أهلنا لتُخفّف من وطأة الشوق والحنين. لم تمضِ أسابيع حتّى بدأنا نتبع دروسًا باللغة الفرنسيّة مع معلّمة شابّة بهيّة الطلعة، وغاية في الجمال، ولم تكن قد أنهت العشرين من عمرها.

كانت الظاهرة الغريبة الأولى التي اختبرناها مع فتاة تُدخّن السجائر أمامنا وتلبس الثياب الحرّة وتتصرّف بحريّة تامّة. بدأنا بالتغامز من ورائها، وصار كلّ واحد منّا يحاول الاجتهاد أكثر من الآخرين لكي يلفت نظرها إليه.

ووُجد من بيننا مَن كان دون المستوى الأخلاقيّ المطلوب... فكانت تلك المرّة الأولى التي أستمع فيها إلى وصف دقيق لمفاتن الفتيات، وصف مثير للغرائز.

بدأنا نؤلّف مجموعات من الرفاق بحسب انسجام أطباع كلّ واحد منّا. وكنتُ خلال هذه الفترة أحاول الانسجام مع الجميع على الرغم من تفضيلي لهذا الرفيق أو ذاك.

لم يمضِ وقت طويل على وجودنا حتّى اكتشفنا ظاهرة لم نألفها في بيوتنا وهي "التجسّس الليالي" لرئيسنا علينا.

كنّا عندما ندخل مهجع النوم نصلّي معه، ثمّ نتظاهر بالنوم، وبعد خروجه نتأكّد من ابتعاده لنباشر اللهو إمّا برمي بضعنا البعض "بالمخدّات"، أو لعب "المصارعة الحرّة". إلى أن اكتشفنا أنّه كان يُرقبنا من سطح مبنًى مجاور "بمنظار"، فينـزل بصمت ويُداهم المكان ويلتقط المخالفين ويُعاقبهم إمّا بالوقف على الجدار أو بالتأنيب الشديد.

مع مرور الوقت وتكرار الحادثة، بدأ عند بعضنا شعور بالخوف والابتعاد عن المشاغبين الليليّين، وسيطرت عند البعض الآخر الرغبة بالتحدّي وحَبك الكمائن.

ككلّ فتية سبق لهم أن شاهدوا أفلامًا فكاهيّة، قام فريق منّا بوضع معجون للغسيل في "حنجور" معجون أسنان أحد الرفاق. وعندما حلّ المساء وصار موعد غسيل الأسنان علا صراخه، وحضر الرئيس ليُعاقبنا جماعيًّا.

أمّا في مختلف مباني المدرسة الداخليّة، فكان كلّ شيء يوحي بالهدوء والصمت.

بدأ الرئيس يُعلّمنا كيفيّة استعمال كتب الصلاة، ثمّ صار يوزّع علينا الأدوار لنقرأ في الكنيسة أو في قاعة الطعام.

على مستواي الشخصيّ، بدأتُ أشعر بالفرق بين حياتي الماضية والحاليّة، وصرتُ أفكّر بالأسر بعد تلك الحريّة التي كنتُ أتمتّع فيها في مدينتي وبين أهلي. ولم يطل أمر اهتزازي الداخليّ وبداية انحرافي نحو الغلط.

بعد حياة غير قصيرة في أجواء كنيسة السريان الكاثوليك وتعلّقي بالكهنة الذين رأيتُ فيهم نماذج قداسة، كان لا بدّ لي من الاعتقاد بأنّ جميع الكهنة كذلك. وكانت الصدمة الأولى بعد أسبوع فقط من وجودي في المدرسة الداخليّة. كنّا خارجين من العشاء في صفّيَن كالعسكر، وإذ بي أرى، عن بعد، ثلاثة أو أربعة من الكهنة يتناقشون، بل يتصايحون وقد ارتفع صراخهم، واخترق قلبي صوت أحدهم ينعتُ كاهنًا آخر "حيوان". أوكّد أنّ حالت الصدمة تلك قد أقضّتْ مضجعي مدّة أسبوع كامل، وحفظتها حتّى يومنا الحالي.

رحتُ أسأل نفسي أُيعقل أن يكون صحيحًا ما سمعته؟ هل يتفوّه الكهنة بمثل هذه الألفاظ، وهل يغضبون ويصرخون بهذا الشكل؟

لأوّل مرّة في حياتي شعرتُ "بالكره" في داخلي على إنسان، وبقيتُ أشهرًا طويلة أتحاشى النظر إلى وجهه على الرغم من أنّي جهلتُ حتّى اسمه.

مضى على الحادثة أسبوع، لتأتي حادثة أخرى وتترك أبشع الأثر في داخلي. هناك حالة وفاة في أحد البيوت، والمتوفّاة امرأة عجوز تخطّت الثمانين من عمرها. أُمرتُ مع رفيقَين لي أن نذهب مع أحد الكهنة إلى بيتها لحمل الشموع والبخور والصلاة على جثمانها. وما إن دخلنا إلى غرفتها ورأيناها مسجّاة قبيحة المنظر، حتّى سيطر علينا هلع شديد. كانت تلك المرّة الأولى التي أرى فيها ميتًا. ظلّ شبح تلك المرأة يُخيفني أكثر من سنة، وصرتُ أخاف من العتمة والليل، وأخشى المكوث وحدي في أيّ مكان. وزاد الأمر سوءً عندما عمل المشاغبون من رفاقي على حبك "التفيزعات" لي، وصاروا يختبئون في الحمام أو وراء الجدار ويصرخون في وجهي.





كان لا بدّ لي من اتخاذ قرار الانضمام إلى شلّة المشاغبين، لكي أتجنّب ضعفي من جهة، ولكي أحاول التغيير من شخصيّتي. ولكنّ الأمر لم يكن بهذه السهولة، وبقيتُ متأرجحًا بين الانخراط الكامل مع الشلّة الجديدة والبقاء مع الفريق المسالم.

في غضون ذلك، كنّا نتابع دروس اللغة الفرنسيّة ونتعلّم كيفيّة استعمال كتب الصلاة. واستمرّ رئيسنا في أسلوبه التربويّ الغريب العجيب المبني على المراقبة سرًّا وعلنًا. لا شكّ في أنّه طالما توقّع منّا أن ننحرف أخلاقيًّا ونفسيًّا وجنسيًّا.

بدأ الابتعاد النفسيّ عن أسرتي يكبر يومًا بعد يوم، ومع مرور الوقت صرتُ أشعر بأنّ عالمي الجديد هذا سيُبعدني نهائيًّا عن أسرتي.

وصلت أولى رسائل والدي مع مَن عرف بقدومهم إلى لبنان، وكانت تعجّ بالنصائح عن الطاعة وعدم مخالطة التلاميذ غير المهذّبين. بالحقيقة لم أتقبّل رسالة والدي وشعرتُ أنّها في غير مكانها، وبأنّه بعيد كلّ البعد عن فهم ما أشعر به وأعيشه.

وضمن برنامجنا الأسبوعي لم يكن الخروج من المدرسة الداخليّة مسموحًا لنا إلاّ معًا، وساعتَين يوم الخميس لشراء حاجاتنا الخاصّة من معجون أسنان وصابون وسواها، ويوم الأحد من الواحدة والنصف ظهرًا وحتّى السادسة مساءً للنـزهة الجماعيّة.

كنّا نخرج معًا من باب المدرسة، وما إن نعبر الشارع الأوّل ونبتعد قليلاً حتّى نتفرّق، فيذهب كلّ فريق منّا حيث سبق أن خطّط، ونتّفق على الاجتماع في مكان محدّد لندخل معًا إلى المدرسة.

امتازتْ نـزهاتنا، في الفترة الأولى، بالتعرّف على المنطقة التي نعيش فيها، ورويدًا رويدًا، صارت تشمل مناطق أبعد. وكم كانت محفوفة بالأخطار عند انطلاق القذائف! كم من الخوف والرعب والهرب للوصول إلى باب المدرسة!

مرّت أشهر عدّة ووصلنا إلى عيد القدّيسة بربارة في الرابع من كانون الأوّل حيث اجتمعنا للمرّة الأولى على مائدة واحدة مع جمهور من الكهنة من مختلف الأمكنة والكنائس. امتازت تلك السهرة بالغناء وتذوّق أشهى المأكولات، وفي الوقت عينه، كانت سبيلاً للتعرّف على بعض الكهنة الذين حاول بعضهم التعرّف على أسمائنا والسؤال عن أهلنا. أمّا انطباعي عن تلك السهرة فلا أستطيع تحديده، لأنّي لم أذكر منه شيئًا غير كاهن واحد لفت أنظاري، ورأيتُ فيه وجهًا بريئًا يُشبه تلك الوجوه التي تعوّدت عليها في حلب.

مع مرور الوقت أصبحنا نقوم بأشغال شاقّة. كم أنهكت قواي! تنظيف الملاعب ومسح الممرّات والغرف، وحفر "الجلول" وصولاً إلى تنظيف القبور. كم كان مقرفًا ومخيفًا فتح قبور الموتى ونبش جثثهم! لقد زاد من خوفي.

وأتى عيد الميلاد. لستُ أذكر إذا كنّا قد ذهبنا في تلك السنة إلى أسرنا أم لم نذهب. جُلّ ما يمكنني قوله إنّ العيد كان غريبًا عليّ في كلّ شيء.

من بين الأمور التي أذكرها أنّني كنتُ بارعًا في تلاوة الصلوات بالكنيسة ومواظبًا على الأعمال التي كانت توكل إليّ. أمّا مفاعيل الصلاة الجماعيّة على حياتي الداخليّة فلم تكن موجودة أبدًا ولن توجد في أيّ يوم من الأيام.

زاد شعوري بابتعادي عن ذلك الإله، إله الطفولة الذي، وإن كنتُ لا أعلم عنه شيئًا، إلاّ أنّه كان حاضرًا في أجزاء مختلفة من حياتي.

كلّ طفل مهما لقّنته من دروس في التعليم المسيحيّ يبقى ضعيفًا من الناحية الروحيّة، لأنّ التقدّم الروحي يجب أن ينبع من الداخل، وأن يترافق مع النصح والإرشاد الأبويَّين، وهذا أمر لم أحظَ به إلاّ في إيطاليا.

قاسم مشترك وجودته بين الحياة في المدرسة الداخليّة وبيتي الوالدي، هو الصلاة قبل الطعام وبعده.

مرّت تلك السنة بطيئة جدًّا إلاّ على جسمي الذي كان قد بدأ ينمو بشكل سريع. زاد طولي وظهر بعض الشعر في أنحاء متفرّقة جسمي، وتكونّت لديّ رغبات باكتشاف الجنس. جنسي أوّلاً ثمّ جنس الأنثى.

لم تنتهي تلك السنة حتّى اكتسبتُ تلك العادة التي لا بدّ لكلّ مراهق من اكتسابها. والأسباب يمكن للقارئ تخيّلها (الرفقة المشاغبون).

هنا دخلتُ في دوّامة عذاب الضمير وما ينتج عنه من صراعات. والأصعب من ذلك هو الاعتراف للكاهن بتلك العادة.

يعلم الربّ بأنّني لم أسمع يومًا إرشادًا من أحد في هذا الموضوع قبل بلوغي السابعة عشرة من العمر.

ومتى حان موعد الاعتراف الأسبوعيّ بعد ظهر السبت، فهناك الكارثة الكبرى. كيف أقول للكاهن ما فعلت! وإذا أخفيته يكون الاعتراف باطلاً وأكون كاذبًا، فتزداد خطيئتي.

لا بدّ من انتقاء تعابير خاصّة تفي بالغرض ولا تُعرّضني للخجل والمشاكل. ولستُ أذكر أيّ تعبير اخترت للاعتراف بمثل هذه "الرذيلة" إذا صح التعبير. بعد الخروج من كرسيّ الاعتراف كنّا نتهامس فيما بيننا: ماذا قال لك؟ وما هو القصاص؟ وكنّا إجمالاً نختار كاهنًا عجوزًا خفيف السمع، ونتمنّى قبل دخول كرسيّ الاعتراف ألاّ يسمع ما سنقوله.

مضت السنة الأولى طويلة شاقّة فقدتُ خلالها براءة الطفولة واكتسبتُ من العادات ما كان قبيحًا.

عدنا صيفًا لنمضي بضعة أسابيع مع ذوينا. وما إن وصلتُ إلى بيتي الوالدي حتّى أدركتُ أنّ شيئًا تغيّر، وأنّي فقدتُ عنصرًا لم أستطع تحديد جوهره.

جُنّت والدتي غبطة وأمطرتني بوابل من الأسئلة التي حاولتُ التملّص من معظمها.

"أنا كتير مبسوط ماما، وعايش بمطرح كتير حلو، ورفقاتي كتير طيّبين".

أمّا والدي فلمس فيّ ذلك التغيير في الشكل والمضمون. وباشر باستنطاقي كشرطيّ، فأخافني جدًّا، وودتُ لو أنّي بقيتُ في لبنان. كنتُ أرتعش منه خوفًا، وأجزع من أن يفضح حقيقة تحوّلي إلى ولد "شرير". وهو بدوره أفهمني بأنّه قد أحسّ بتحوّلي، وصوّب نحوي عظته البليغة غير المتجانسة مع عمري: "إياك والتفكير بالفتيات! العادة السريّة أعظم خطيئة تقتل الروح وتُنهك الجسم. لقد حذّرتك قبل سفرك، وها أنت قد أهملت إرشادي ووضعت توجيهي جانبًا". خفضتُ رأسي لكي لا يتأمّل في عيوني ويكتشف حقيقة أفعالي الدنسة، ورحتُ أنفي عنّي جميع التهم.



وتكرّر الأمر عدّة مرّات حتّى صرتُ أتمنّى العودة إلى المدرسة الداخليّة بأسرع وقت.

فاتني الكلام عن رفاقي الثلاثة والعشرين، فقد غادر منهم اثنان، الأوّل بعد شهرَين من دخولنا، والثاني في منتصف السنة، وعندما جئنا صيفًا إلى حلب بقي أكثر من نصفهم فيها.

حان موعد العودة، وانطلقنا إلى المدرسة الداخليّة بعد عظة طويلة تفوّه بها والدي قبل مغادرتي وتركتُ ورائي دموع أمّي التي لم ولن تقبل يومًا بغيابي عنها.

"يا بلا قلب مانك شايف الحرب بلبنان! وين بعدك باعت الصبي!" هذا ما قالته لوالدي الذي أجابها "اسكتي أحسن ما يتأثّر الولد ويغيّر رأيو".

وصلنا إلى المدرسة الداخليّة لنجد أنفسنا ستًّا وعشرين طالبًا بين قديم وجديد. ووجب على شلّتنا القديمة العهد أن تضع للقادمين حدودًا منذ اليوم الأوّل. قال أحدنا "خلّينا نربّيون من اليوم الأوّل، أحسن ما يطلعلنا منّون شي واحد جاسوس". وهكذا بدأنا نُحيك الكمائن للبعض منهم.

الفصل الثالث

الابتداء والنذور المؤقّتة (البسيطة) والترك

رُبّ مستفسر يسألني: لماذا أكملتَ على الرغم من كلّ هذه المعاناة والألم؟ في الواقع، لستُ أجد، حتّى هذه اللحظة، الجواب الحقيقيّ على موضوع استمراري!

في الحياة أمور كثيرة نجهل الهدف منها. هل كانت العناية الإلهيّة وراء استمراري، أم الخوف من ردّة فعل والدي الذي كان يُريدني كاهنًا؟ هل من سبب آخر؟

أعتقد أنّي كنتُ قد دخلتُ في دوّامة عقد الذنب، وصرتُ أخشى من العودة إلى بيتي الوالدي وقد تلطّختُ بالخطايا وفقدتُ "السلام" الداخلي. وربّما لأنّني كنتُ أخاف من الخسارة على المستوى المدرسيّ بعد أن اختلطتْ عليّ الدروس. اليوم بالذات، وبعد أن رأيتُ ما حصل ويحصل في رعيّتي التي أفنيتُ زهاء عشر سنوات من عمري في سبيل نموّها وازدهارها وتطويرها، أجدني غارقًا في التكفير العميق إلى ما لا نهاية: إذا كانت هذه إرادة الله في أن يحصل ما قد حصل، فلا يمكنني إلاّ القبول بها، لعلّ عند الله تدبيرًا آخر لي ولرعيّتي. مع تحفّظي الشديد على مثل هذا السؤال لأنّ الله لا يستثمر "شرًّا" ليجني منه خيرًا. هذه قناعتي حتّى هذه اللحظة.

وإذا لم تكن هذه إرادة الله، فيجبُ على هذه المؤسّسة الكنسيّة أن تنتهي وتـزول بعد أن فقدتْ كلّ صلة لها بالله.

وتكون النتيجة أنّي ماضٍ نحو التخلّي النهائي عن هذه المؤسّسة الهرمة التي سيطر على المسؤولين عنها كلّ نوع من الأمراض العسيرة الشفاء. وليغفر لي الربّ جمع هذه الأفكار التي تتنافى مع دعوته إلى عدم دينونة الآخرين.

جلّ ما في الأمر أنّي لا أستطيع أن أُكمل حياتي في هذه المؤسّسة ومعها. تكفيني جميع سنوات فقدان "السلام".

أريد أن أربح نفسي، ولا ينفعني شيء إذا ما حصلتُ على ثناء الناس وتقديرهم وخسرتُ نفسي.

زالتْ جميع الأحلام والطموحات، وصار كلّ شيء باطلاً أمام عيني.

الابتداء

عدنا من الفرصة، وبدأ تحضيرنا لارتداء "الثوب الأوّل" الذي يُعرف بثوب الابتداء.

تمتاز سنة الابتداء هذه (أقلّه في تلك الفترة) بكونها سنة تحضير للنذور ينقطع خلالها "المبتدئون" عن العالم، ويعيشون في الدير حيث يُتابعون دروسًا في "الحياة الرهبانيّة" و"الليتورجيّا" و"الموسيقى الكنسيّة" و"تاريخ الكنيسة" و"اللغة اليونانيّة" وغير ذلك من الدروس. ويأخذ العمل اليدويّ في برنامجهم اليوميّ حيّزًا كبيرًا.

بدأت الاستعدادت لارتداء ثوب الابتداء. لا أستطيع اليوم بالذات أنّ أتخيّل طفلاً لم يُكمل الخامسة عشرة من عمره سيرتدي "الثوب الأسود" ويستعدّ مدّة سنة للقسم على الإنجيل "بالفقر والعفّة والطاعة"!

يكفي التفكير بهذا الأمر ليعرف الإنسان أنّ "القانون الكنسيّ" يتناقض مع جميع المعايير الإنسانيّة والمسيحيّة.

كنّا ستّة صبيان على ما أذكر. نُقلنا من المهجع إلى غُرفتَين مستقلّتَين، في كلّ واحدة منهما ثلاثة أسرّة وخزانة مشتركة وحمّام مشترك. وأُطلق على "الرواق" الذي وضعنا فيه اسم "رواق الابتداء"، وكانت غرفة نوم رئيسنا في أوّله، وغرفة نائبه في الوسط، وغرفتانا في الأخير. وفي "الرواق" عينه غرفة للدرس والمطالعة وأُخرى للسهرة.

عشق رئيسنا هذا العمل بالأرض والحديقة، وسخّر لأجل ذلك جميع طاقتنا وقوانا، فصرنا نفلح الأرض يوميًّا ونحفرها طوال ساعات بدون أن نشعر بالملل والنفور. وكان هو نفسه معنا في جميع الأعمال، يقول لهذا احفر هنا، فيحفر، ولذاك ازرع هناك، فيزرع.

ومن صفاته الرائعة التي عشقناها أنّه كان رجل علم واسع، ومتقنًا بارعًا للغات القديمة عامّة واليونانيّة بشكل خاص.

تميّزت جميع الدروس التي كنّا نأخذها مع هذا الكاهن أو ذاك بالرتابة والملل والقنوط، إلاّ مادّتَي اللغة اليونانيّة وتاريخ الكنيسة، فقد أُغرمتُ بهما إلى أبعد حدّ بسببه. خلبني أسلوبه في سرد التاريخ، ولم أكن أتمنّى للحصّة أن تنتهي. أمّا تدريسه للغة اليونانيّة فكان صعبًا بسبب إسراعه في تلقيننا القواعد والصرف والنحو. وعلى الرغم من ذلك لم نشعر بالضجر.

مضت الأشهر الأولى معه بسلام وهدوء حتّى إنّني ولشدّة تعلّقي به كنتُ أُنظّف له غرفته التي لم أرَ في حياتي غرفة أقذر منها.

لم أعرف، في حياتي، رجلاً مهملاً مثله. فكنتُ أرى كتبه في كلّ مكان، على السرير والمكتب والأرض. وكم من مرّة سمعتُ منه التأنيب بسبب ترتيبي لغرفته! سأكتشف لاحقًا أنّي صرتُ أشبهه في هذه الفوضى داخل غرفتي.

على صعيد آخر. كنّا قد انتقلنا لتناول الطعام في "المائدة" المخصّصة للكهنة. وهناك ظهرتْ جميع العيوب والآفات واضحة أمام عيوننا. عن الأحاديث التافهة، حدّث بلا حرج. وعن تخصيص نوع من الأطعمة لهذا، ونوع آخر لذاك، بحجّة أو بدونها، فحدّث أيضًا بلا حرج. وسرعان ما اكتشفنا حقيقة الإخوة الأعداء. عرفنا، ولأوّل مرّة، أنّ بعض الكهنة قد أمضوا حياتهم كلّها بالخصام والشجار والنفور.

ولمسنا كم كان رئيسنا محطّ سخرية الآخرين الذين، في كلّ اجتماع للطعام، يهزأون به وبطريقته في الطعام، وبثيابه القذرة. وكم تملّكتني رغبة، في جميع المرّات، برمي الصحون على وجوههم. أمّا رئيسنا البسيط والطيّب فلم يكن يُجيب في معظم الأحيان، ويحنق عليهم في بعضها.

كنّا ندخل الكنيسة أو "المائدة" ونقوم بما يُسمّى بالـ "سجدة" أمام عيون الجميع، وهي انحناء كلّ جسمنا حتّى الأرض مع ملامسة الجبين للأرض، علامة للطاعة والتواضع.

من بين القوانين التي كانت سائدة، العمل اليدويّ "بالثوب". أي إنه لم يكن مسموحًا للمبتدئ أن يخلع ثوبه إلاّ للخلود إلى النوم. وقد سبّب هذا القانون الكثير من المشاكل لرئيسنا، لأنّه، على الرغم من تقدّمه بالسنّ (حوالي سبعين سنة)، أظهر مرونة في تطبيقه، وسمح لنا بارتداء ثيابنا العاديّة بما فيها "الشورت" للعمل في الحديقة. وبذلك تخطّى جميع الأعراف والقوانين.

لست أنسى، مهما عشت، تلك "البهدلة" التي نالها في أحد الأيام عندما كنّا نعمل في الحديقة تحت إشرافه. كنتُ أرتدي "شورتًا" طويلاً إلى مستوى الركبة، وإذ بكاهن قادم من مكان بعيد يدخل من باب الدير حاملاً حقيبته الخشبيّة القديمة، وما إن دخل الساحة ورآني، حتّى استشاط غضبًا وبدأ بالصراخ "مين هيدا، وكيف لابس هيك؟". صُعقت لسماعي صراخه، وبرد عرقي المتصبّب. وما إن عرف أنّنا "طلاّب الابتداء" حتّى راح يصرخ في وجه رئيسنا وينعته بأسوأ النعوت بسبب تخطّيه للأنظمة والقوانين.

احمّر وجه رئيسنا خجلاً، ولم يعرف بماذا يُجيب. هنا أسرعتُ بالركض إلى غرفتي وارتديتُ "بنطالونًا" طويلاً، وأقسمتُ يمينًا ألاّ أرتدي "شورتًا" طوال حياتي. وبالفعل بقيتُ وفيًّا لقسمي حتّى اليوم.

تفاقمت الحملة على رئيسنا عندما سمح لنا، في إحدى المرّات، بالذهاب إلى السينما لمشاهدة أحد الأفلام (لا أذكر ما كان).

كان إذن الذهاب مشروطًا بالذهاب "بالصاية" (أي الثوب). ذهبنا إلى السينما وصرنا مشهدًا لجميع الحاضرين في الصالات. وكم شعرنا بالإحراج ونحن نرى الناس ينظرون إلينا باستغراب.

بعد "تخطّي" رئيسنا لجميع القوانين والأعراف، قرّر الرؤساء تعيين مساعد له من بين الكهنة الجدد. هكذا، بعد انقضاء بضعة أشهر على "الابتداء"، جاءنا مساعد شاب اتّسم بالقسوة والصرامة في تطبيق النظام. وعادتْ حياتنا إلى سابق عهدها من التحدّي والمشاكل. وبما أنّ رئيسنا كان أضعف من أن يأخذ أيّ موقف، فقد غاب حضوره كرئيس، ولكنّه استمرّ على متابعة تدريسنا.

لم تمضِ أسابيع على تعيين مساعد للرئيس حتّى ترك اثنان أو ثلاثة من رفاقي "المبتدئين". وأكملنا سنتنا بمَن تبقّوا.

خلال هذه السنة اكتسب بعض رفاقي عادة التدخين، وعلى الرغم من حجم الإغراءات، لم أتعلّم هذه العادة السيّئة. لكنّي اكتسبتُ:

إيجابيًّا: محبّة العلم، وخاصّة التاريخ. وتعلّمتُ من رئيسي التواضع والبساطة.



سلبيًّا: عرفتُ من خلال الدروس التي تلقّناها أنّ تاريخ الكنيسة حافل بالمشاكل والخصام، وقد أثّر ذلك على نفسيّتي أبلغ الأثر. وزُرعت فيّ أولى بذور التصعّب ضدّ كنيسة روما التي عانى الشرق بسبب تدخّلها في حياته معانات جمّة.

وستُشكّل هذه العناصر نواة صراع داخليّ في المرحلة اللاحقة من حياتي.

أكملنا السنة، على الرغم من الصعوبات، ووصلنا إلى ساعة الحسم، أعني "القرعة" التي كانت تُجرى للمبتدئين وتُحدّد عدد الذين تمّ قبولهم "للنذور".

تصير القرعة في "المائدة" بعد الغداء أو العشاء. يجتمع جميع الكهنة والرهبان، ويقترعون سريًّا على كلّ واحد منّا. ويكمن الاقتراع في توزيع حبّات من القمح وأخرى من الشعير على الكهنة الحاضرين. وترمز حبّة القمح إلى الرضا، والشعير إلى عكسها. وبعد الانتهاء من القرعة، يتمّ إحصاء عدد حبّات القمح وعدد حبّات الشعير، لكلّ "مبتدئ"، فإذا تخطّى عدد القمحات عدد الشعيرات، يُعتبر المبتدئ مقبولاً، وإلاّ مرفوضًا. وفي الحالة الثانية يكون مصيره إمّا الطرد أو إعادة سنة الابتداء بشرط أن يُحسّن "المبتدئ" من سلوكه.

لم يُرفض أحد منّا، على ما أذكر، وحصلتُ على التقدير والثناء، على الرغم من بعض الملاحظات على تصرّفاتي وأخلاقي.

وتحدّد موعد النذور الابتدائيّة في الثالث والعشرين من تشرين الأوّل. لا أذكر إذا كنّا قد خضعنا لرياضة روحيّة أم لا.

اتصل الرؤساء بأهلنا لإعلامهم بقبولنا "للنذور المؤقّتة" ودعوتهم إلى الحضور والمشاركة.

في حلب، اتّصل أهل رفاقي بوالديَّ ليسألوهما عمّا إذا كانا سيذهبان، وذلك السفر معًا والإقامة المشتركة في لبنان.

رفض والدي السماح لوالدتي بالذهاب إلى حفلة "النذور". ولم ينفع معه تدخّل الكبير والصغير. وتحجّج لأمّي بخشيته من أن تقودني عواطفي للعودة وإياها إلى حلب. أمّا أمّي فكانت ترجوه بدموع وتقول له: "شو ممكن يكون شعور الصبي، إذا شاف أهالي رفقاتو كلّون حاضرين، وأهلو غايبين". وكانت حرب ضروس بينهما، انتهت بانتصار والدي، وبقاء والدتي في حلب.

كان الاحتفال بالنذر غريبًا عجيبًا، بالنسبة إلى مراهق بعمريّ.

سأكتشف فورًا أنّ ما أقدمتُ على فعله "بإرادتي" المفترضة والمزعومة، لا يمكن أن يقوم به إنسان راشد.

بدأتُ حفلة النذور خلال صلاة الغروب الاحتفاليّة:

الخورص: أسرع يا مخلّصي وافتح لي ذراعيك الأبويّتين، لأنّي أضعت عمري كالابن الشّاطر. فلا تعرض الآن، أيّها المخلّص، عن قلب مفتقر إلى غناك الذي لا ينفد، ولا تحرمه رحمتك، لأنّي إليك يا ربّ أصرخ بخشوع: خطئت إليك فخلّصني.

(هنا ينطلق الإخوة المتقدّمون إلى النذر، وهم حافون ولابسون قمصانًا بيضاء، من عند باب الكنيسة من الداخل، ويسيرون وسط الكنيسة برفقة عرابينهم، ويعملون، قبل وصولهم إلى الخورص، ثلاث مطانيّات كبيرة، ولدى بلوغهم الخورص يعملون مطانيّات كبيرة نحو الهيكل وإيقونتي السيّد والسيّدة وكلّ من خورص اليمين واليسار ونحو الأب العامّ. ثّم يقفون أمام الباب الملوكيّ بالترتيب ابتداءً من أمام إيقونة السيّد، فيوجّه إليهم الأب العام هذه العظة).

الأب العام: أيّها الاخوة، افتحوا آذان قلوبكم، واسمعوا صوت الربّ القائل: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقّلين، وأنا أريحكم. احملوا نيري عليكم، وتعلّموا منّي، فإنّي وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم" (متّى ١١: ٢٨). والآن أجيبوا الله بخشية الجواب الموافق على كلّ ما تسألون، واعلموا يقينًا أنّ مخلّصنا قد حضر هنا مع أمّه المكرّمة وملائكته الأطهار وجميع قدّيسيه، ليستمع إقراراتكم، وهو سيجازيكم عندما يأتي ليدين الأحياء والأموات، لا على حسب ما تعدون به، بل على قدر ما تُنجزون، فإن كنتم تتقدّمون حقًّا إلى الله، أجيبوني الآن بانتباه على ما تسألون!

(يجلس الأب العام، إن شاء، ويركع الإخوة أمامه)

الأب العام: أيّها الاخوة، لماذا تقدّمتم راكعين أمام المذبح بحضرة هذه الجماعة المباركة؟

الإخوة: رغبةً في الحياة الرهبانيّة، أيّها الأب المكرّم.

الأب العام: أترغبون في ارتداء الزيّ الرهبانيّ والانضمام إلى رهبانيّتنا؟

الإخوة: نعم، بمعونة الله، أيّها الأب المكرّم.

الأب العام: في الحقيقة إنّكم اخترتم عملاً صالحًا ومغبوطًا، اللّهمّ إذا أتممتموه، لأنّ الأعمال الصالحة إنّما تُكتسب بالكدّ وتنجح بالتعب. أتتقدّمون إلى الربّ عن معرفة وحريّة؟

الإخوة: نعم، أيّها الأب المكرّم.

الأب العام: ألا تتقدّمون عن جهل أو اضطرار؟

الإخوة: كلاّ، أيّها الأب المكرّم.



الأب العام: أتثبتون في الحياة الرهبانيّة بمقتضى نذركم هذا؟

الإخوة: نعم، بمعونة الله، أيّها الأب المكرّم.

الأب العام: أتصونون ذواتكم في التبتّل والعفة والورع؟

الإخوة: نعم، بمعونة الله، أيّها الأب المكرّم.

الأب العام: أتخلصون الطاعة للرئيس ولجماعة الإخوة بالمسيح؟

الإخوة: نعم، بمعونة الله، أيّها الأب المكرّم.

الأب العام: أتعتنقون الفقر الاختياريّ على مثال السيّد المسيح؟

الإخوة: نعم، بمعونة الله، أيّها الأب المكرّم.

الأب العام: أتتحمّلون جميع مشقّات الحياة الرهبانيّة وضيقاتها لأجل ملكوت السماوات؟

الإخوة: نعم، بمعونة الله، أيّها الأب المكرّم.

الأب العام: أتعملون لخدمة الكنيسة والنفوس حبًّا لله وفقًا لفرائضنا؟

الإخوة: نعم، بمعونة الله، أيّها الأب المكرّم.

الأب العام: أنظروا، يا بنيّ، أيّة عهود تعطون السيّد المسيح، فالملائكة حاضرون غير منظورين يسجّلون إقراركم هذا، الذي ستُسألون عنه في مجيء ربّنا يسوع المسيح الثاني، وهاأنذا أصف لكم الحياة الفضلى التي تتجلّى فيها، على طريقة المشابهة، سيرة الربّ، مبيّنًا لكم ما يجب أن تعملوه وما يجب أن تتجنّبوه: يا بنيّ، قد اخترتم التقدّم إلى الربّ والتعبّد له، فإذا أردتم أن تكونوا رهبانًا، فقبل كلّ شيء نقّوا ذواتكم من كلّ أدناس الجسد والروح متمّمين القداسة بمخافة الله. واكتسبوا التواضع فترثوا به الخيرات الأبديّة. أنبذوا صلف العيشة العالميّة، والزموا الطاعة للجميع. لا تتبرّموا بما يترتّب عليكم من خدم، تجلّدوا في الصلاة، لا تتوانوا في السهر، لا تجبنوا في التجارب. لا تتراخوا في الصيام، بل اعلموا أنّه بالصلاة والصيام يجب عليكم أن تستعطفوا الله. لا تصغر نفوسكم في الأسقام. احترزوا من الأفكار الشريرة، فإنّ العدو لن يكفّ أن يذكّركم بالعيشة السابقة ويبغّض إليكم السيرة الفاضلة، فعليكم إذن وقد شرعتم تسلكون الطريق المؤدّية إلى الملكوت، أن لا تلتفتوا إلى الوراء، وإلاّ فلن تستحقّوا ملكوت السماوات، لا تؤثروا على الله شيئًا، ولا تحبّوا أكثر منه لا أبًا، ولا أمًّا، ولا إخوة، ولا أحدًا من ذويكم، بل ولا أنفسكم، ولا ممالك العالم، ولا أيّة راحة أو كرامة، ولا تستنكفوا من الفقر، ولا من ضرر، ولا من احتقار الناس، ولا من أيّ شيء آخر تظنّونه صعبًا، فتحجموا عن السعي وراء المسيح، بل تصوّروا على الدوام الحياة التي يتوقّعونها العائشون حسب مشيئة الله. فكّروا في الشهداء والأبرار الذين على مرّ العصور قد أحرزوها بالأعراق والأوجاع الكثيرة والدماء الغزيرة والميتات المتنوّعة، تيقّظوا في جميع الأمور واحتملوا المشقّات كجنود صالحين للمسيح، الذي على كونه غنيًّا افتقر برحمته لأجلنا وصار مثلنا لكي نحظى نحن بغنى ملكوته. لذلك يلزمنا نحن أيضًا أن نقتدي به ونحتمل كلّ شيء من أجله، وننمو نهارًا وليلاً في وصاياه. لأنّ الرّبّ نفسه قال: "من أراد أن يتبعني، فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (لوقا ٩: ٢٣). ومعنى هذا أن يكون الإنسان مستعدًّا دومًا، حتّى الموت، لإتمام وصاياه فإنّكم ستكونون عرضةً للجوع والعطش والعريّ والهوان والهزء والعار والاضطهاد والوقوع في أمور كثيرة تتّسم بها حياة العابدين لله. وإذا حلّت بكم هذه الأمور فافرحوا، حسب قول الكتاب: "لأنّ أجركم عظيم في السماوات" (لوقا ٦: ٢٣). بيسوع المسيح ربّنا، الذي له المجد إلى الدهور. آمين.

هل تقبلون بهذا كلّه، متّكلين على قوّة الله؟ وهل تعاهدون أن تثبتوا، بنعمة المسيح، في هذه العهود حسب الفرائض؟

الإخوة: نعم، بمعونة الله، أيّها الأب المكرّم.

(هنا ينهض الأب العامّ، إذا كان جالسًا، ويتلو هذه الصلاة)

الأب العام: السلام لجميعكم

الخورص: ولروحك

الكاهن: فلنحن رؤوسنا للربّ

الخورص: لك يا ربّ

الأب العام: أيّها الربّ إلهنا، يا رجاء المتّكلين عليك وملجأهم جميعًا، يا من بتأنّس مسيحه شرّع لنا طرقًا مختلفة، اقبل عبيدك هؤلاء (أسماء الإخوة)، الذين تركوا الشهوات العالميّة وقدّموا ذواتهم لك، أيّها السيّد، ذبيحة حيّة مرضيّة، انتزع منهم كلّ نزوات الجسد والأميال المنحرفة حتّى يطرحوا، بقصّ شعورهم الفاقدة الحسّ، الأفكار والأفعال الفاقدة العقل، ويؤهّلوا لحمل نيرك الطيّب، وحملك الخفيف ولأخذ صليبك واتّباعك، أيّها السيّد. صنهم في قداستك، وامنحهم عزمًا صالحًا ليحفظوا وصاياك المقدسّة، وأحصهم في الوقت الموافق مع جوقة مختاريك. بشفاعة سيّدتنا والدة الإله الكاملة الطهارة، وأبينا القدّيس باسيليوس الكبير، والقدّيسين الذين أرضوك منذ الدّهر. لأنّه قد تبارك اسمك وتمجّد ملكك، أيّها الآب والابن والروح القدس، الآن وكلّ آوان وإلى دهر الداهرين.

الخورص: آمين.

(يمسك الأب العام الإنجيل بيده أو يضعه على منضدة إلى جانبه، ويجلس إذا شاء. ويركع أمامه الإخوة واحدًا بعد الآخر، فيقول الأب العام لكلّ منهم بالتوالي):

الأب العام:أيّها الأخ (فلان)، هوذا المسيح حاضر هاهنا غير منظور، فتبصّر هل من أحد يكرهك على التقيّد بالنذر ولبس الثوب الرهباني؟ تبصّر: هل أنت بملء حريّتك تريد ذلك؟

الأخ: نعم بملء حريّتي، أيّها الأب المكرّم.

(ثمّ يأخذ الأب العام المقصّ ويضعه على الإنجيل المقدّس ويقول للأخ)

الأب العام: خذ هذا المقصّ وأعطني إياه.

(فيتناوله الأخ ويُقبّله ويعطيه للأب العام.

فيضعه الأب العام ثانية على الإنجيل المقدّس ويقول للأخ)

الأب العام: خذ هذا المقصّ وأعطني إياه.

(فيتناوله الأخ ويُقبّله ويعطيه للأب العام.

فيضعه الأب العام ثالثة على الإنجيل المقدّس ويقول للأخ)

الأب العام: خذ هذا المقصّ وأعطني إياه، ها إنّك من يد المسيح تأخذه، فتبصّر إلى من تتقدّم وإلى من تنضمّ وبمَن تكفر.

(فيأخذ الأخ المقصّ ويُقبّله ويعطيه للأب العام قائلاً)

الأخ: خذ يا أبتِ هذا المقصّ، وقصّ لي شعر رأسي، لأنّي تخلّيت عن إرادتي الخاصّة، وأضحّي بها بين يديك لأجل محبّة الله.

الأب العامّ تبارك الله الذي يشاء أنّ جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحقّ يبلغون، هو المبارك إلى دهر الداهرين.

الخورص: آمين.

(يقصّ الأب العامّ من شعر رأس الأخ بشكل صليب قائلاً)

الأب العام: يقصّ شعر رأس أخينا (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس. فلنقل من أجله ثلاث مرّات: يا ربّ ارحم.

الخورص: يا ربّ ارحم (ثلاثًا).

الأب العام: أيّها الأخ (فلان)، أريد أن تصرّح جهارًا بنذرك أمامي وأمام هذا الجمهور الحاضر.

(يضع الأخ يمينه على الإنجيل المقدّس، ويتلو بصوت عال وبتأنّ صورة النذر التالية)

بحضرة الله القدير، ومريم البتول الكاملة القداسة، وأبينا القدّيس باسيليوس الكبير وسائر القدّيسين، وأمام رئيسنا العام الأرشيمندريت (فلان) الفائق الاحترام، أنا الأخ (فلان) أنذر الفقر والعفة والطاعة بحسب فرائضنا.

الأب العام: وأنا، من قِبَل الله، إذا ما حفظت هذه، أعدك بالحياة الأبديّة، باسم الآب والابن والروح القدس.

الخورص: آمين.

(وينهض الأخ الناذر الجديد ويُقبّل يد الأب العام، ويقف في موضعه. ويأتي الذي بعده ويركع، فيقول له الأب العام: هوذا المسيح حاضر... كما ورد أعلاه.

ومتى انتهى الجميع من تلاوة صورة النذر جهارًا، يلبسهم الأب العام الأثواب الرهبانيّة التالية، قائلاً على الصاية).

الأب العام: إخوتنا (الأسماء) يلبسون ثوب البرّ، باسم الآب والابن والروح القدس. فلنقل من أجلهم ثلاث مرّات: يا ربّ ارحم.

الخورص: يا ربّ ارحم (ثلاثًا).

(وعلى الزنّار)

الأب العام: إخوتنا (الأسماء) يشدّون أحقاءهم بقوّة الحقّ، لإماتة الجسد وتجديد الروح، باسم الآب والابن والروح القدس. فلنقل من أجلهم ثلاث مرّات: يا ربّ ارحم.

الخورص: يا ربّ ارحم (ثلاثًا).

(وعلى الجبّة)

الأب العام: إخوتنا (الأسماء) يلبسون ثوب الابتهاج، باسم الآب والابن والروح القدس. فلنقل من أجلهم ثلاث مرّات: يا ربّ ارحم.

الخورص: يا ربّ ارحم (ثلاثًا).

(وعلى السكوفة واللاّطية معًا)

الأب العام: إخوتنا (الأسماء) يلبسون خوذة رجاء الخلاص، باسم الآب والابن والروح القدس. فلنقل من أجلهم ثلاث مرّات: يا ربّ ارحم.

الخورص: يا ربّ ارحم (ثلاثًا).

(وعلى الحذاء)

الأب العام: إخوتنا (الأسماء) يلبسون الحذاء، استعدادًا لبشارة إنجيل السلام، باسم الآب والابن والروح القدس. فلنقل من أجلهم ثلاث مرّات: يا ربّ ارحم.

الخورص: يا ربّ ارحم (ثلاثًا).
(ثمّ يعطيهم الصليب قائلاً)
الأب العام: قال الربّ: "مَن أراد أن يتبعني، فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (لوقا ٩: ٢٣). فلنقل من أجلهم ثلاث مرّات: يا ربّ ارحم.
الخورص: يا ربّ ارحم (ثلاثًا).
(ثمّ يعطيهم شمعة موقدة قائلاً)
الأب العام: قال الربّ: "هكذا فليضئ نوركم قدّام الناس ليروا أعمالكم الصالحة، ويمجّدوا أباكم الذي في السماوات" (متّى ٥: ١٦). فلنقل من أجلهم ثلاث مرّات: يا ربّ ارحم.
الخورص: يا ربّ ارحم (ثلاثًا).
وفي ختام هذه الصلوات يُقبّل الأب العام الاخوة الناذرين الجدد. ويتبادلون التهاني، بينما يرنّم الخورص هذه القطعة على اللحن الأوّل)
الخورص: لنُدرك، يا اخوة، قوّة هذا السرّ، فإنّ الابن الشاطر لمّا هرب من الخطيئة ورجع إلى البيت الأبويّ، استقبله أبوه الكامل الصلاح وقبّله، وأعاد إليه شارات المجد السابق نفسه، وأقام عيدًا بهيجًا بذبحه العجل المسمّن.

هنا تنتهي رتبة إبراز النذور، فتتابع صلاة الغروب كالمعتاد.

اتّخذت عرّابًا لي كاهنًا عجوزًا، سأواكبه في آخر أيام حياته، وقد أُصيب بنوع من الخرف، وأصبح محطّ سخرية الجميع.

أذكر أيضًا قصّة تغيير اسمي من "عطا الله" إلى "مكاريوس". فقد سبق لأحدهم أن عرض عليّ اسم "ثيوذورس" وآخر "ثيوذسيوس" وكلاهما يعنيان "هبة الله أو عطيّة الله". غير أنّي اخترتُ اسم "مكاريوس" تخليدًا لذكر كاهن شاب توفّي بعد رسامته الكهنوتيّة بثمانية أشهر، وكان من الكهنة الذين أحبّهم رئيسنا في الابتداء، وحفظ له كلّ ذكر طيّب. لأجل ذلك اخترتُ هذا الاسم.

الأسابيع التي تلتْ النذر

عدنا، بعد النذر، للانضمام إلى حياة الجماعة، وتمّ تلبيس "ثوب الابتداء" لفوج جديد من الطلاّب.

وبما أنّ أحدًا من أهلي لم يأتِ لحضور حفلة نذوري، فقد تمّ إرسالي إلى حلب لفترة أسبوع أو عشرة أيام، لأعود من بعدها إلى الدير، ومنه إلى المدرسة لمتابعة دروسي الثانونيّة.

كان اللقاء بأهلي، في حلب، باردًا نوعًا ما. وعرفتُ من أمّي أنّ والدي منعها من السفر إلى لبنان لحضور حفلة نذوري، فغضبتُ عليه في داخلي أشدّ الغضب.

خلال هذه الأيام القليلة التي مكثتُ فيها بحلب، أُصيب والدي باضطرابات قلبيّة ومكث طريح الفراش لبعض الوقت، ثمّ تعافى. وقد عزا شفاءه إلى زيارة رئيسنا في "الابتداء" له، والصلاة لأجل شفائه.

مضتْ الفرصة، بدون أن أذكر تفاصيلها. وعدنا إلى الدير.

كان رئيسنا الجديد بانتظارنا وهو واحد من الكهنة الشباب الذين عادوا من روما ورُسموا كهنة.

خلال هذه الفترة، عشتُ أمرّ أنواع الصراع الداخليّ والخارجيّ. وسيطرتْ عليّ طباع: العناد وعدم السكوت على الظلم، ورفض أيةّ إساءة قد تصدر بحقّي أو بحقّ غيري، والوقوف في وجه مَن يحاول التسلّط علينا. واتّسمت الأشهر القليلة التي مكثتُ خلالها كأخ ناذر بالعنف الكلامي من قِبَلي، وكثرة العقوبات من قِبَل رئيسي. إلى أن وصلتْ الأمور إلى حدّ فاصل.

الترك والعودة إلى حلب

بدأ الصراع كبيرًا في داخليّ بين الواقع الحقيقيّ للحياة الرهبانيّة من جهة، والنذور التي أقسمتُ على عيشها من جهة أخرى.

رحتُ أفكّر بما نذرتُ من فقر وعفة وطاعة. وصرتُ أقارن بين نصوص رتبة النذر وحياتي الشخصيّة. وتوصّلتُ إلى القناعة بأنّي بعيد كلّ البعد عن إمكانيّة عيش هذه النذور.

وتراكمت الأحداث التي تلت النذر، فشعرتُ خلالها بأنّ بقائي مضيعة للوقت وعبثًا لا خلاص منه. إلاّ أنّ القرار المباشر بالترك ارتبط بحادثتَين مفصليَّتن.

الأولى: كنتُ أعمل في تنظيف حديقة الدير، وربّما كنتُ قد نسيتُ أو أهملتُ جزءً منها، أو لم أُنظّفه كما يجب، لستُ أذكر. هجم عليّ رئيسيّ هجومه على مجرم وانهال بالشتائم، ونعتني بالحيوان.

لم أستطع الردّ عليه لأنّي شعرتُ، وأعتذر على الكلمة "بفجوره". وبقيتُ طوال اليوم والأيام التي تلتْ الحادثة أتألّم، حتّى إنّي لا أزال إلى يومنا الحالي أتذكّر الحادثة كلّما رأيته.



الثانية: كنتُ أخدم على "المائدة" وأُقدّم الطعام للكهنة، ولستُ أذكر تحديدًا الخطأ الذي اقترفته، أذكر فقط أنّ الغداء كان "لوبية"، ربّما أوقعتُ القليل منها على ثياب أحد الكهنة، الله يعلم. فانهال عليّ رئيس الدير بالصراخ. عندئذ ثارتْ فرائصي كلّها، ودلوتُ بدلوي له بدل الكيل كيلَين وشتمته. ونلتُ قسطي من العقاب "الركوع" في الكنيسة وفي المائدة.

اجتمعتْ هذه العناصر، واتّخذتُ القرار، ووجّهتُ إلى الرئيس العام كتابًا أطلب فيه "حلّي" من النذور وإعادتي إلى الحالة العلمانيّة.

لم تنفع طبعًا محاولات إقناعي بالعدول عن قراري. وما هي إلاّ أيام حتّى وصلني كتاب الحلّ من البطريرك، فحزمت أمتعتي، وقفلتُ عائدًا إلى حلب تاركًا ورائي تأثّر رئيسي السابق في الابتداء ودموع بعض رفاقي.

الفصل الرابع
سنة في حلب

عندما تضيق الدنيا بإنسان، وعندما يشعر بأنّ قوى الظلام كلّها قد اجتمعت عليه وضدّه، وعندما توصدُ جميع الأبواب في وجهه، وينتابه إحساس عميق بأنّ وجوده أصبح ضارًّا لجميع الذين هم حوله، وعندما يفترض، في صمت الله عن صلاته، أنّ الله نفسه قد تخلّى عنه، ماذا تراه يفعل؟

في داخل كثيرين منّا صراع داخليّ دائم يختصّ بمسلّمات مبدئيّة أو جوهريّة. أين الله من كلّ ما يحصل في حياتنا من ألم ومرض وشقاء وتعاسة؟ أين العدل في تعامل الله مع أبناء آدم؟

نحاول الإجابة على مثل هذه الأسئلة، وندور في حلقات مفرغة بدون أن نصل إلى أيّ جواب. لتبقى، بعد طول بحث وتفتيش، نظريّة "المتعالي" سيّدة المنطق. الله "فوق" وهناك هوّة سحيقة تفصلنا عنه، وبالتالي لا فائدة من جميع تعب الإنسان في بناء جسور معه، إذ جميع أنواع الجسور لن تتمكّن من أن تربط بين "المتعالي" "والدنيوي"، عنيتُ به الإنسان.

ولكي لا يقع المرء فريسة إلحاد معنويّ وعاطفيّ، يُسلّم جدلاً بوجود الله، ويسلّم فورًا بحياديّة هذا الإله الذي لا نفع من وجوده، أقلّه في حياة البشر.

أليس هذا الإله نفسه هو الذي قد أوحى للإنسان بصحّة هذه الفرضيّة؟ والشواهد واضحة في سفر الجامعة:

"فوجّهتُ قلبي ليطلب ويبحث بالحكمة عن كلّ ما صُنع تحت السماء، فإذا هو عناء رديء جعله الله لبني البشر ليعتنوا به. رأيتُ جميع الأعمال التي عُملتْ تحت الشمس، فإذا الجميع باطل وكآبة الروح" (الجامعة ١: ١٣-١٤).

"كلّ شيء يُنسى، وأَسَفاه يموت الحكيم كالجاهل" (الجامعة ٢: ١٦).

وإذا قرأ الإنسان سفر الجامعة كلّه وتأمّل فيه، وقرأ غيره من نصوص الكتاب المقدّس بعهدَيه وبعض نصوص القرآن، يستنتج أنّ الكلام عن الله يعني الكلام عن "نظام وضعه الله يسير الكون بموجبه" ولا فائدة للإنسان من أن يحاول تغيير شيء منه. إنّها القدريّة التي ترفضها المسيحيّة "عقائديًّا" جملة وتفصيلاً، غير أنّ جميع المسيحيّين مسلّمين بها أشدّ تسليم. في الحوادث "هيك الله راد"، وفي الموت "إرادة الله" وفي المصائب "يلّي بيحبّوا الله بيجربوا"، وفي أيّ موقف مؤلم أو مُحزن "لا اعتراض على حكم الله"، "يلّي رايدو الله بيصير"، "هيك الله كاتب".

إذًا مهما كلّفت المؤسّسة الكنسيّة نفسها عناء التفتيش عن مصطلحات تُفسّر من خلالها مفهوم الشرّ للناس، لتُخفّف من عبئه على كواهلهم، فلن تتوصّل إلى نتائج مبهرة. لقد تعوّدت العامّة على هذا المفهوم "السلبيّ، والحياديّ" لله، ولأجل ذلك ينتظر البشر المعجزات، وتراهم، في جميع أنواع ممارساتهم وعباداتهم، يُهرولون وراء هذه الأعجوبة هنا، وتلك المعجزة هنا، وذاك الظهور لا أعرف أين.

البشر بانتظار دائم لحضور الله لعلّهم ينالون منه إحسانًا أو شفاءً أو بركة الخ. وتجاه هذا التوق والشوق والشغف من حيث كونه ظاهرة اجتماعيّة-دينيّة-ماورائيّة لا يتلكّأ الفكر الكنسيّ، الذي يعلّم "اللا قدريّة" في المسيحيّة، عن بثّ جميع ما يمكنه أن يُقوّي مثل هذه النـزعة ويدعمها في "العباد" حتّى تحوّلت ظواهر القداسة والمعجزات وجميع ما يختصّ بهما إلى تجارة تضاهي تجارة البترول.

وبقي موقف الله واضحًا من الفقر والمرض والموت والبؤس والشقاء والألم والظلم والقتل والاغتصاب وجميع الجرائم التي تجري تحت الشمس، ألا وهو "اللامبالاة". لن يتغيّر شيء من "المكتوب" الذي "ما منّو مهروب"، و"المكتوب على الجبين، لازم تشوفو العين". فلا الصلاة تنفع ولا التضرّعات ولا البخور ولا الشموع ولا التبرّعات التي حوّلت كنيسة المسيح إلى مؤسّسة برجوازيّة وإقطاعيّة وأضرّت بها وبالمسيح نفسه.

وإذا كان جميع البشر متّفقين على رفض جميع أشكال الظلم والقهر والموت والمرض الخ، وجميعها "إرادة الله"، فهم منطقيًّا يرفضون حتمًا الله نفسه، إذ لا يمكن الإيمان به ورفض إرادته في آن واحد! فأيّ إيمان هو هذا الذي يعتقد البشر أنّهم يعيشونه؟

هذا وتصبّ جميع عظات الكهنة، في مختلف المناسبات، باتجاه تشجيع هذا المنطق المغلوط عند أبناء آدام. إذًا تساوى الجميع في عدم الإيمان أو أقلّه في طرح فكرة مغلوطة جدًّا عن الإيمان، وفكرة بمنتهى السلبيّة عن الله.

وإذا ما فكّرنا، ولو قليلاً، بنقيض هذا الكلام، أي بالتدخّل المباشر والإيجابيّ لله في حياة كثيرين، على امتداد العصور، نصل إلى استنتاج حقيقة أصعب، عنيتُ بها "التمييز" بين الناس عند الله، فهو يختار الذين يُنعم عليهم وينبذ الآخرين. وهنا يكون السؤال الأخطر: أنحن نتكلّم عن الله أو عن إنسان طغى الشرّ على عقله وقلبه.

ونصل إلى الطامة الكبرى: "معضلة الموت" والمصير المحتّم بعدها لبني البشر من ثواب وعقاب، و"فردوس" و"جهنّم" و"مطهر"، وجميع النظريات التي كُتبت عن كلّ منها، لنكتشف أنّنا فعلاً بعيدون كلّ البعد عن الله وعن فكر الله وقلبه.

لا يمكن للإنسان العاقل أن يسترسل في البحث بمثل هذه القضايا والإشكاليّات إلى ما لانهاية بدون أن يضيع ويخسر نفسه، أو يصل إلى الجنون.

وخلاصة القول إنّ البشر قد شوّهوا جميع الحقائق الأرضيّة والسماويّة، المنظورة والماورائيّة، ولم يتركوا للصمت في حياتهم من مكان للإصغاء إلى صوت الله. كلّ صلاة لا تعدو كونها صراخ وكلام ثمّ كلام. نبدأ ولا ننتهي، ومتى انتهينا، نعود إلى ما كنّ نفعله قبل أن نبدأ، وكأنّ شيئًا لم يكن، غير تاركين برهة واحدة لله ليفتح فاه ويتكلّم، فننصتُ ونسمع.

أين أنا من الله، وأين الله منّي؟ هذا هو السؤال الأعظم. إذا تمكّنتُ من الإجابة عنه وعليه، أستطيع القول إنّي قد خطوت خطوة نحو الله وباتجاهه.

لا شيء ممّا كُتب في ما يُسمّى "اللاهوت" بمختلف مضامريه: العقائدي، والكتابي، والأساسي، والآبائي الخ، وبمختلف اتجاهته: "السلبي" و"الإيجابي"، "اليساري" و"اليمني"، لم يجد السراط الحقيقيّ إلى الله، لأنّ "معظمه" يفتقر إلى الصمت لسماع الله. وحدها خبرة النسّاك كانت اختبارًا حقًّا لحضور الله.

وطالما أنّ الإنسان متقلّب في كلّ شيء، فلن يتمكّن من البلوغ إلى الله.

لقد استطاع الشاعر المصري الكبير عبد الرحمن الأبنودي (١٩٣٨) أن يُجسّد واقع تقلّب الإنسان في قصيدته "ساعات، ساعات" التي غنّتها المطربة الراحلة صباح. وهنا في الحقيقة تكمن قصّة بحث الإنسان عن ذاته وعن إلهه.

لم يأتِ المسيح بأقوال من خارج الزمان والمكان، ولم يتكلّم مع البشر بالإلهيّات، بل بما يختصّ بحياتهم اليوميّة. وبالتالي مَن لم يلتقِ بالمسيح على الأرض سيبقى في حالة ألم متواصل، ومن الطبيعي ألاّ يجده في الأبديّة.

"ساعات ساعات، أحبّ عمري وأعشق الحاجات...
أحبّ كلّ الناس وأتملّى إحساس، وأحسّ جوّايا بميّة نغم
ميّة نغم يملو السكات، ساعات ساعات... أحسّ أد إيه وحيدة
وأدّ إيه الكلمة في لساني ماهيش جديدة، وأدّ إيه مانيش سعيدة
وإنّ النجوم بعيدة، وتقيلة خطوة الزمن، تقيلة دقّة الساعات
ساعات ساعات... أضحك وألعب زيّ عصفورة ربيع، زيّ النسيم
زيّ النسيم ما يعدّي وفي لحظة يضيع، أضيع أفرح أويّ...
وأضحك أويّ أويّ... وأحبّ عمرى وأعشق اليوم اللي فات
ساعات ساعات... غريبة... وغريبة
نفس اللّي بيفرّحني ما يفرّحني، وغريبة، نفس اللّي بيريّحني ما يريّحني
وأحسّ إن عمري فات، من غير ما أحبّ عمري وأعشق الحاجات
كدا ساعات وكدا ساعات، وغريبة غريبة... دقّة الزمن...
وغريبة غريبة... لعبة الساعات... ساعات ساعات...
أحبّ عمري وأعشق الحاجات، أحبّ كلّ الناس وأتملّى إحساس
وأحسّ جوّايا بميت نغم، ميّة نغم يملو السكات
ساعات ساعات...
أحبّ عمري وأعشق الحاجات".

هذه حقيقة صراع الإنسان الداخلي في تقلّبه المتواصل، ليته يستطيع أن يصمت لعلّه يجد الله "ذاك الصامت الأكبر". ليته يفهم أنّ لعبة الزمن التي تتقاذفه رياحها في كلّ اتجاه هي البوابة الأولى والوحيدة نحو الله والقريب.

الزمن يعني الألم، ولا إيمان حقيقيّ إلاّ خارج الزمن، لذلك يجب علينا أن نُميت كلّ ما هو زمنيّ فينا: المرض، الشقاء، القهر، الضياع، العذاب، العواطف الخ... وربّما حتّى كلّ شعور بالحبّ كما نفهمه: "علاقة أجسام وأجساد" تتزاوج بدون أن تتّحد.

سنة في حلب

حطّت بي السيارة في حلب بعد الظهر. كانت أمّي وحدها في البيت، استقبلتني بفرح ممتزج بقلق لم أفهم سببه إلاّ مساءً عندما عاد والدي من العمل.

كان اللقاء بيننا دراميًّا إلى أبعد الحدود. "إذا ما بتشتغل، أنا ما معي مصاري طعميك"، بهذه الجملة استقبلني والغضب يُسيطر عليه. فلعنتُ الساعة التي قررّتُ فيها العودة إلى بيتيَ الوالدي. وأدركتُ أن الشقاء ينتظرني حتّى بين أهلي.

لم يكن بوسع والدتي أن تتّخذ أيّ موقف خوفًا من ردّة فعله.

نهضتُ في اليوم الثاني والحسرة تأكل أحشائي، وذهبتُ إلى إحدى المدارس الليليّة وتسجّلتُ فيها لمتابعة دروس صفّ التاسع (البروفيه). ورحتُ أبحث عن عمل، إلى أن وجدتُ مكانًا في أحد معامل العطورات، حيث أمضيتُ أشهرًا عدّة، أعمل نهارًا وأدرسُ ليلاً. وأقبض مرتّبي الزهيد وأدفع معظمه إلى والدتي، لتأخذه منّي بحسرة.

كان العمل شاقًّا في مجتمع غريب عنّي كلّ الغرابة، خاصّة بالنسبة إلى حداثة سنّي. ورأيتُني أشعر بالهدوء خارج البيت طوال ساعات النهار حتّى المساء، وكانت العودة إلى البيت بمثابة القصاص خوفًا من ردّات فعل والدي.

من جهته، قاطعني مدّة أشهر عدّة، ولا حتّى مجرّد "صباح الخير" أو "مساء الخير".

اتّسمت الحياة في البيت بالحذر الدائم وتحاشي والدي من قِبَل الجميع. كيف لا، وقد خالفتُ نذره، وحطّمتُ وعوده لله!

لم تمضِ مدّة طويلة أعدت خلالها روابط الصلة مع أصدقاء الطفولة من جهة، ومع رفاقي الذين سبق أن تركوا المدرسة الداخليّة من جهة أخرى.

كنّا في فترة نهاية الأسبوع نمضي أوقاتًا جميلة في بيت هذا أو بيت ذاك. ولم يكن بإمكاني التأخّر أكثر من الساعة التاسعة والنصف أو العاشرة تحاشيًا للمشاكل مع والدي.

عاشت والدتي هذه السنة حالة من القلق الدائم، إذ كانت مُجبرة على مدارة الجميع، والتوسّل إليّ كي أتحمّل والدي.

وتوطّدت علاقتي بإخوة رفاقي وأخواتهم، إلى أن وقعتُ أسير غرام إحدى أخوات رفيق لي ممّن كنّا نسهر وإياهم في عطلة نهاية الأسبوع. وكانت لهذه أخت أكبر منّا جميعًا، فهذه أصبحتْ مرشدة المراهقين، وأنا من عدادهم. وصرتُ أخبرها عمّا أعانيه من مشاكل وخاصّة في العمل، فاقترحتْ عليّ أن أتوظّف في "مؤسّسة الإسكان العسكريّة" حيث تعمل.

أعجبتني الفكرة، خاصّة وأنّ هذه المؤسّسة تابعة للجيش حيث يمكنني أن أمضي لاحقًا فترة خدمتي العسكريّة الإلزاميّة، فقبلتُ عرضها، وطلبتُ منها السعي بالأمر.

بالفعل، تمّ قبولي بقسم الكهرباء الصناعيّة في أحد فروع هذه المؤسّسة، عنيتُ به "معمل جرّارات الفرات".

في هذا العمل الجديد عشتُ أخطر مراحل حياتي من حيث مشقّة العمل وتعرّضي لخطر الكهرباء ذات التوتّر العالي، وصعودي إلى مرتفعات تزيد عن عشرة أمتار حاملاً بيدي العدّة الكهربائيّة الثقيلة الوزن.

أُصبتُ في هذا العمل الجديد بتحسّس جلدّي مؤلم بسبب المواد المستعملة، وعانيتُ من أوجاع طويلة الأمد. وعلى الرغم من ذلك أكملتُ إلى أن حان موعد تقديم امتحانات الشهادة "الإعداديّة" بحسب المنهج السوري "البروفيه".

في البيت الوالدي كانت الحياة جحيمًا لا يُطاق مع والدي. ولكنّها امتازت ببناء علاقة وثيقة مع أختي التي تركتُها صغيرة عندما ذهبت إلى لبنان. ستكون هذه السنة كافية لتجعل منّا صديقَين حميمَين حتّى اللحظة الحاليّة.

أمّا والدي، فكان بين وقت وآخر، ينهال عليّ بأسوأ التعابير ويصفني بالفاشل، وكنتُ بدوري أصرخ في وجهه، وأُعبّر له عن اشمئزازي منه ومن خطاباته وأقواله.

حان وقت الامتحانات، ووجب عليّ الاستعداد، فطلبتُ فرصة من العمل لمدّة خمسة عشرة يومًا. وصرنا نجتمع، رفاقي وأنا، مرّة في بيت هذا، وأخرى في بيت ذاك، كذلك في بيتنا خلال فترة غياب والدي. وكانت أمّي تُحضّر لنا الفاكهة و"العرايس".

مرّت الامتحانات رهيبة، عشتُ خلالها حالة اضطراب كبير، وكنتُ خائفًا من الرسوب، ومن ردّة فعل والدي في حال رسوبي.

أكملتُ عملي في معمل الجرّارات بانتظار ظهور نتائج الامتحانات في نهاية تمّوز ومطلع آب. وحانتْ ساعة النتيجة، وظهر اسمي بين عداد الناجحين، ولكن بمعدّل ضعيف (١٦٤ درجة من أصل ٢٤٠ على ما أذكر)، الأمر الذي لم أتوقّعه.

عدتُ إلى البيت مبتهجًا للنتيجة، إلاّ أنّ ردّة فعل والدي أحبطتْ في داخلي كلّ نوع من الغبطة. "شو مخمّن حالك أخدت دكتورا؟" هذا ما علّق به على نجاحي.

طريق العودة إلى الدير

في غضون ذلك، وعلى امتداد كلّ تلك السنة، كان جميع الذين حولي من رفاق ومعارف يُعاملونني معاملة "الإكليريكيّ" الذي يجب عليه أن يعود إلى ديره ويُكمل طريق الكهنوت.

بعد صدور نتائج الامتحانات، قرّرت أن أُفاتح مرشدتنا بحقيقة مشاعري تجاه أختها، وذُهلت من ردّة فعلها عندما أجابتني: "إنت خلقت لتكون خوري".

اجتعمتْ مختلف هذه العلامات والعناصر، وامتزجت، بدون شكّ، بمعاناتي مع والدي، لتُشكّل نواة إعادة التفكير بموضوع "العودة إلى الدير". غير أنّي لا أذكر أنّ مثل هذا النوع من التفكير قد أخذ منّي وقتًا ولو لدقائق، إذ مجرّد التفكير بالعودة وجب أن يكون مرفقًا بتخيّل المعاناة التي تنتظرني في الدير.

تميّزت هذه السنة، ببعض من المرح مع رفاقي، ولم تتخلّها العديد من محطّات الصلاة، بسبب دوام العمل من جهة، وبسبب ردّة فعلي على الكهنة وقد اكتشفتُ حقيقتهم. ولكنّي لم أتخلَّ عن الصلاة الفرديّة كلّيًّا.

وصل شهر أيلول، وبوصوله شعرتُ بتغيّرات في داخلي، حتّى اليوم لم أستطع تحديدها. وحلّ يوم العودة قُبيل عيد ارتفاع الصليب، نهضتُ فيه باكرًا، وبدل الذهاب إلى العمل، توجّهتُ إلى مقرّ قبول الطلبة للحياة الرهبانيّة. التقيتُ بالكاهن الذي كان يعرفني مسبقًا. وبعد أن كرّر على مسامعي "إنت شابّ ربنا دعاك للكهنوت"، وجّه إليّ الكثير من النصائح، ثمّ طلب منّي العودة إلى مكتبه بعد "كم يوم" للحصول على جواب القبول أو الرفض.

مضت "الكم يوم" وإذا بالنتيجة إيجابيّة. عدتُ إلى البيت، وبدون أن يكون قد خالجني أيّ نوع من الشعور بالفرح أو بسواه، أخبرتُ والدتي التي جنّ جنونها من جديد. وفي المساء أخبرتُ والدي الذي لم يأتِ بردّة فعل سلبيّة أو إيجابيّة، وانهال عليّ بوعظاته البليغة التي مقتها نفسي حتّى الغثيان.

في الموعد المحدّد، انطلقت بنا السيارة، أنا والطلاّب الجدد، لأجد نفسي في ذلك المكان الذي تركته بعد خصومات ومشاكل، وبعد أن كرهتُ فيه كلّ شكل من أشكال الحياة الكهنوتيّة.

الفصل الخامس

من الفساد إلى الإلحاد

قد يتمكّن الإنسان من نسيان الكثير من أخطائه، إلاّ أنّ بعض الأخطاء أو بالأحرى "الذنوب"، خصوصًا تلك التي تمّس الآخرين، يصعب نسيانها أو تجاهلها أو تناسيها. وأظنّ أنّ في ضمير كلّ إنسان على وجه البسيطة خطأً ما يقفز بين الفترة والأخرى ليجعل من ساعات يومه "سنوات عذاب داخلي" يتمنّى لو تنقضي بسرعة، فيحاول التلهّي بأمور من هنا وأخرى من هناك ليتجاهلها.

وفي جميع الأحوال، ستمرّ هذه الساعات، كما مرّ غيرها من قبلها، غير أنّ بصماتها ستبقى عالقة في عمق أعماقه. وسيقفز اللاوعي، من حين إلى الآخر، ليُظهر من خلال تصرّفاته نقطة ضعفه بدون أن يشعر. وإذا ما أحسّ بأنّ الحجاب الحاجز لخفاياه أوشك أن ينفضح، يلجأ إلى عقله ومنطقه ليستر ما قد قفز من داخله بشتّى الوسائل.

ومن بين خفايّات البشر "الظاهرة" للحكيم، ما أصبح، في عصرنا الحالي، قاعدة وعرفًا، بل قانونًا، عنيتُ به وبها: "خلّيني شوفك بالليل، الليلة بعد الغروبِ، مش عيب الملقى بالليل، الليل بيستر العيوب". ولكن عن أيّ ليل يتكلّم الشاعر الملهم واضع هذه القصيدة التي إذا ما جسّدت شيئًا، فهي تُجسّد الواقع القاتم التي بات يُشكّل "فلسفة" مجتمعاتنا (مع الاعتذار الشديد من مصطاح الفلسفة)! في الواقع، إنّه يقصد ليل الضمائر التي شرعنتْ القصّة المنسوبة إلى الشاعر بشّار بن بُرد.

رويَ عن الشاعر بشّار بن برد أنّه أنّه واعد مرّة امرأة ليختلي بها خلوة غراميّة، فما كان منها إلاّ أن ذهبت وأخبرت زوجته. واتّفقتا على أن تذهب الزوجة إلى الموعد المحدّد. كان الظلام دامسًا تلك الليلة، وبعد أن فعل الشاعر بالمرأة ما فعله، قالت له: يا ابن برد؟ فعرفها من صوتها، وأجابها: ما ألذّكِ بالحرام!

لقد أصبح مضمون هذه القصّة شاعًا جدًّا في مجتماعاتنا وبيوتنا ومؤسّسات، وسيطر على جميع شرائح المجتمع. وبتنا نتلذّذ بمال ليس بمالنا، ونلهو مع نساء لسنا زوجاتنا، ونتمتّع "بمحرّمات" منعتها القوانين والأخلاق والأعراف والأديان. وماذا بعد؟

أيحقّ لنا من بعد التكلّم عن الإيمان والسلام والمحبّة وسواها من الفضائل؟

يا إلهي، كم تلذّذت "بمحرّمات" طالما حذّرتني منها!

كم تبعتُ "شهواتي" وقد نمتْ وأزهرتْ في هذه الأرض الخصبة، أرض "الفساد" الذي نشره أصحاب "الذمم الواسعة" حيث الشعارات السائد "يلاّ الدنيا كلّها ماشية هيك"، و"شو بدّك تقوّم المقتاية؟"، و"عامل حالك شريف وقدّيس؟"، وسواها من الشعارات التي اجتاحت مجتمعاتنا وروّجتْ "الفساد" على أنواعه، حتّى بات كلّ ما هو "أخلاقيّ" و"قانونيّ" و"شرعيّ" الخ منبوذًا كلّيًّا.

رائحة "الدعارة" أعذب من رائحة الأزهار، وعتمة "الخطيئة" أشدّ نورًا من لمعان الشمس، وجماح "الشهوات" أهدأ من تغريد العصافير، وهدير "الغرائز" أخفّ وطأة من الإصغاء إلى الترتيل، الخ...

هل من طريق عودة لبني البشر؟ الله أعلم!

من الفساد إلى الإلحاد

وصلتُ إلى الدير حيث كان الجميع بانتظاري، كهنة ورفاقًا، وكلّ له همّه الخاصّ. هذا ينصحني، وذاك يحاول جذبي نحوه.

كانت الأوضاع في لبنان صعبة للغاية، والحرب في استعار متزايد.

في البداية، طُرح السؤال: هل يجب على مكاريوس أن يُعيد سنة "الابتداء" أم يمكننا قبوله للنذور البسيطة المؤقّتة؟ وأعتقد أن قرار السلطة الرهبانيّة جاء مع قبولي للنذور البسيطة بعد فترة قصيرة في الابتداء. وهكذا صار.

انضممتُ إلى الفوج المختلط بين قديم وجديد من الإخوة الناذرين. وكان هناك أيضًا فوج جديد من "المبتدئين" الذين، كالعادة، وجب عليهم عدم الاختلاط بغيرهم من الطلاّب أو الإخوة الناذرين.

تميّزتْ الأشهر الأولى بالتنقّل من مكان إلى آخر هربًا من الحرب، فلا مدرسة ولا دروس بشكل جدّي، حتّى في صفوف الكهنة شعرتُ بفوضى عارمة، تنقّل وترحال وهرب، ونـزول إلى الملاجئ. إذًا جميع الظروف والأجواء مهيّئة للفساد والإفساد والفوضى.

عادت "الشّلة" القديمة-الجديدة إلى الالتفاف والانصهار، وساد "نَفَس" جديد، وهيمنتْ "روح" جديدة على تصرّفات "الشلّة" وأفعالها، وحدّث بلا حرج.

كنتُ قد أنهيتُ السادسة عشرة من عمري، عندما ذقتُ طعم أوّل سيجارة في حياتي. لا أنسى ذلك الدوّار الذي أصاب رأسي، وما صاحبه من شعور بالغثيان، وكيف هرعتُ لتنظيف أسناني ورشّ العطر على ثيابي كي لا أسترعي انتباه أحد. وسرعان ما سيطرتْ عليّ هذه الآفة بعد عدّة محاولات تدخين.

رحماك يا الله، كيف تجرّ الرذيلة الأولى زميلاتها الأخريات! وكيف يجرّ الرفاق أصحابهم إلى المهالك!

التدخين ممنوع في الدير، والإدمان لا يرحم، والهروب إلى الخارج هو الطريق الوحيد للحصول على الإشباع.

في سنة "الفوضى" هذه، عرفتُ، لا أذكر كيف، أنّ لرفاقي محطّة في منطقة برج حمّود، يذهبون إليها كلّ أحد، وكلّ مرّة تسنح لهم الفرصة بذلك. وقادني الفضول إلى الاستفسار عن قصّة هذه المحطّة! وإذ بها إحدى دور السينما التي تعرض، على مدار الساعة، الأفلام الخلاعيّة.

وفي الواقع، كان من بين رفاقنا واحد يكبرنا بحوالي عشر سنوات. هذا أدمن على مشاهدة هذه الأفلام. هكذا بدأتْ قصتي مع أفلام الدعارة. ومثل السيجارة الأولى، كان الفيلم الأوّل مصحوبًا بأغرب المشاعر، ومرفقًا بأزمة ضمير بعد المتعة الغرائزيّة.

ولكن إلى مَن ألجأ لأنهض من كبوتي هذه؟ لقد غاب كلّ حسّ روحيّ في داخلي.

على الصعيد الروحي أستطيع القول إنّي، من تاريخ دخولي المدرسة الداخليّة وصولاً إلى النذر المؤقّت، لم أسمع أيّ حديث روحيّ بنّاء. ومن بعد هذه السنوات، استقدم رئيسنا كاهنًا راهبًا في السبعينات من عمره ليعظنا ويُرشدنا. لأوّل مرّة شعرتُ بحديث روحيّ مشوّق اخترق أعماقي ولو لساعات أو أيام. واستغربتُ كلام الكاهن العجوز عن حياتنا الجنسيّة وعن أهواء المراهقين وأساليب معالجتها بعمق وحكمة. لم نتخيّل أن يكلّمنا رجل بعمره بمثل هذا الانفتاح.

غير أنّ البذار التي سقطتْ من فمه على أرض قلبي الصخريّة لم تُثمر، فقلبي مهتمّ بأمور أخرى.

توفّي العديد من الكهنة خلال هذه الفترة. وحصلتُ أحداث مأساويّة في لبنان أودت بحياة كثيرين، وطالت القذائف ديرنا عينه.

تفوتني هنا الأحداث، وأكاد لا أذكر منها شيئًا. كم من الوقت مضى على عودتي إلى الدير، وما هو عدد الأشهر التي بقينا فيها بدون دراسة، وكم مرّة انتقلنا من منطقة إلى أخرى.

هل كنتُ كسولاً، أم متوسّط النجاح؟ أعتقد أنّني لا أعرف الجواب. لا أذكر من هذه السنوات شيئًا غير الفوضى والعبث. ذكرياتي عن المدرسة مشوّهة تكاد تتوقّف عند كره رفاقنا اللبنانيّين لنا كسوريّين، واحتلالنا لوطنهم.

المهمّ، أنّنا دخلنا جامعة الروح القدس (الكسليك)، وبدأنا السنة الجامعيّة الأولى في قسم الفلسفة.

لم أكن مميّزًا في دروسي، ولم أُظهر أيّ اجتهاد خاصّ. جلّ ما في الأمر أنّي كنتُ أنجح في موادي الدراسيّة. في هذه الجامعة عشنا فعليًّا الحقد تجاه السوريّين بشكل منهجي. وبدأنا نفهم الأسباب بشكل أكاديميّ. كم من مدرّس حوّل الدرس إلى ساعة سياسة!

أذكر حادثة حصلت مع أحد رفاقي الذين كانت لهجتهم الحلبيّة مفضوحة. كان أحد الأساتذة الكهنة (ممّن هم اليوم في الصدارة بالجامعة عينها وعلى شاشات وسائل الإعلام) قد جعل منه محطّ سخريته، و"تحطّط" عليه كما نقول بالعاميّة، فصار مضحكة لباقي التلاميذ، حتّى إنّ التلميذ من شدّة يأسه ترك الجامعة والدير وقفل عائدًا إلى بيت ذويه. وكان الأستاذ، في كلّ "حصّة" ينهال عليه بالأسئلة، فيرتبك، ولا يعرف للإجابة سبيلاً، ويبدأ الأستاذ بالتهكّم بطريقة لا شيء من المسيحيّة فيها ولا من الإنسانيّة. إلاّ أنّ لكلّ شيء حدود، ففي إحدى المرّات، ونتيجة لتشجيعنا له، تمكنّ زميلنا من التغلّب عن ضعفه، ووقف أمام

الأستاذ وأجاب على سؤال طرحه عليه، وإذا بواحد من التلاميذ الحلبيّين يصرخ بأعلى صوته: "حلو أبو حلب"، وهنا توتّرت الأجواء وعمّت الفوضى... وربّما كان هذا الحادث السبب النهائيّ المباشر لهرب التلميذ!

من الأمور الإيجابيّة التي أذكر أنّي قمتُ فيها، خلال تلك الفترة، اهتمامي بالكهنة العاجزين والمرضى، بما في ذلك حمّامهم، على الرغم ممّا كان ينتابني من قرف أحيانًا.

يحضرني هنا مشهد طُبع في داخلي عندما بادرتُ إلى "تحميم" رجل مُسنّ كان مشرفًا على الموت، وشعرتُ بموته وأنا معه في الحمّام. وفي الواقع، توفّي فورًا بعد الحمّام. لأوّل مرّة أحسستُ أنّي أتيتُ بعمل يُكفّر عن ذنوبي.

تخونني ذاكرتي، وأفتقر إلى مراجعة دقيقة لتلك الفترة، لأنّ انغماسي آنذاك في عالم الشهوات بقي وحده طاغيًا على ذاكرتي.

صدمة تهزّ صورة الله في داخلي

سبق أن تكلّمتُ عن منع المبتدئين من الاحتكاك بغيرهم من التلاميذ أو الإخوة الناذرين أو الكهنة، وكان من بين المبتدئين شابّ لم يتجاوز عمره السابعة عشرة. هذا، حاول التقرّب منّي كثيرًا، وكنتُ أشعر عنده بنوع من اللهفة نحوي، غير أنّ النظام العام، وانشغالي بأهوائي، وعدم الشعور تجاهه بأيّ إحساس خاصّ، جعلتني جميعها غير مكترث بمشاعره ولا برغبته التقرّب منّي. لست أذكر تمامًا ظروف اللقاء الذي جمع بيني وبينه خلسة على إحدى طرقات قرية بقاعيّة! اتّسم حديثه بنوع من اليأس والألم لم أعرف أسبابه. وكان الشابّ يتيم الأب والأم، وربّما أتى إلى الدير بحثًا عن أهل وأسرة! غاب معظم حديثه عن ذهني إلاّ جملة واحدة قالها لي: أنا أتعس إنسان على وجه الأرض.

بعد عودتنا إلى بيروت، تردّد صدى جملته هذه مرارًا وتكررًا في داخلي. ولم يكن بيدي حيلة، فمن جهة أولى، كان رئيسه قاسيًا، قليل التفهّم لمشاكل الشباب، ومن جهة أخرى لم يكن هو في قائمة اهتماماتي.

مضتْ الأحداث مسرعة خلال فترة شهرَين أو ثلاثة، ولم أنفرد بلقاءٍ معه إلاّ للحظات. اجتمعت عدّة صدف لتحفر في وجداني وضميري جرحًا لم يندمل حتّى اليوم. من جهة أولى، كان أحد الكهنة الطاعنين بالسنّ مريضًا يُتوقّع موته في أيّ لحظة، ومن جهة أخرى، تعرّضت إحدى الراهبات لنـزف دم حاد، ونُقلت بحالة إسعاف إلى المستشفى، وتقرّر منحها ثلاثة أكياس من الدم، ولكن من أين الدم في مثل ظروف الحرب تلك؟

حضرت رئيسة الدير وطلبتْ من رئيس ديرنا أن يتبرّع تلاميذ الدير بالدم لإنقاذ حياة الراهبة. ووقع الاختيار عليّ وعلى اثنين آخرين، كان الشاب أحدهما.

انطلقنا بسيارة الدير إلى المستشفى. وأثناء الطريق عرفنا من رفيقنا الثاني معلومة كنّا نجهلها، ومفادها أنّه لا يجوز سحب الدم ممَّن لم يبلغ الثامن عشرة من عمره. لا أعرف لماذا شعرتُ بخوف كبير على ذلك الشاب! وما إن وصلنا إلى المستشفى ودخلنا مختبر سحب الدم حتّى أسرعتُ نحو الممرّضة وقلتُ لها: إنّ هذا الشابّ لم يبلغ بعد الثامنة عشرة من عمره. فأجابتني: لا مشكلة.

امتازت تجربتي الأولى مع منح الدم بالخوف والتردّد. وما إن أنهينا عمليّة منح الدم، وبدأنا بالاستعداد للعودة حتّى غاب رفيقنا الشاب عن الوعي ومال وجهه إلى الشحوب والاصفرار. وبدأت معاناته التي امتدّت حوالي شهر ونيّف.

تدهورت صحّته بشكل سريع، وصار يقع أرضًا مغميًّا عليه أكثر من مرّة في الأسبوع. واحتار الأطبّاء في كشف حقيقة مرضه.

ومساء الثلاثاء في الثاني عشر من تشرين الثاني، وبينما كنّا متوجّهين إلى الكنيسة لصلاة الغروب وقد غابت الشمس، التقينا في الرواق المؤدّي إلى الكنيسة، فتوجّه نحوي والحذر بادٍ على وجهه خشية أن يراه رئيسه وقال لي: أنا أتعس إنسان على الأرض وسأموت.

انتابني خوف هائل، وانتظرتُ انتهاء العشاء لأكلّم رئيسه بموضوع تدهور صحّته، فأجابني بتأكيد الأطبّاء على عدم وجود مرض خطير. وطلبتُ منه اصطحابه إلى طبيب آخر.

بدأ يوم الأربعاء كئيبًا من أوّله، وكانت الدروس الرتيبة في الجامعة مملّة. عدنا ظهرًا إلى الدير، وما إن لجنا البوّابة الكبرى حتّى رأينا سيارة الإسعاف تخرج من الدير مسرعة. للوهلة الأولى، اعتقدتُ أنّها جاءت لتنقل الكاهن العجوز إلى المستشفى، غير أنّي سمعتُ صراخ عاملة الغسيل وبكاءها يُدوّي في أرجاء الساحة، فركضتُ نحوها، وقبل أن أسألها، شهقت قائلة: "أخدو جورج، وما بعرف شو صارلو". وما هي إلاّ لحظات حتّى انطلق جميع مَن الدير إلى بهو المستشفى، الجميع في حالة قلق وانتظار وترقّب.

هرعتُ، بدون وعي، نحو الكنيسة، وتوجّهتُ إلى إيقونة يسوع السيّد الجالس على العرش، وبدأتُ أتمتم بكلمات غريبة أذكر منها: "إذا بيصرلو شي، رح أترك الدير إلى الأبد"، "إذا بيصرلو شي، رح أكرهك"، "أرجوك اشفيه". وشعرتُ بوجه يسوع في الإيقونة يسخر منّي ومن تهديدي، وأيقنتُ فورًا أنّ جورج قد مات.

يا إلهي كم يرعبني ويؤلمني تذكّر هذا الماضي الحزين!

اكتشفتُ من جرّاء هذه الحادثة موهبة ستواكبني فترة طويلة، تقوى وتضعف بين الفترة والأخرى، أعني بها معرفة ما سيكون قبل حدوثه.

لم يتأخّر خبر الوفاة بالوصول، وعمّ الحزن أرجاء الدير... لا أستطيع أن أصف شعوري ولو أتقنتُ كلّ فنون اللغة والأدب.

وفي اليوم الثاني كانت الجنازة عظيمة ومهيبة وحزينة... وبقي سبب الوفاة مجهولاً حتّى الساعة. ولا أزال أحتفظ وحدي بشريط سجّلتُ فوقه صلاة الجنازة والعظات التي رافقتها.

ربّما كانت وفاة جورج السبب المباشر للإلحادي، ولكن لا شكّ في أنّ الأسباب عديدة. المهمّ أنّ وفاته مع ما رافقها من شعور بالذنب بسبب تقصيري معه وإهمالي لألمه، أدّت بي جميعها إلى الشكّ بوجود الله، بل إلى نكرانه نهائيًا.

النفق المظلم

دخلتُ نفق الآثام لأعبر فيه بوّابات أزمة الضمير وأصل إلى إلحاد مصحوب بكره لكلّ ما هو إلهيّ. لم يبقَ من مجال للمصالحة مع الله الحقود والظالم وغير المبالي بآلام الناس.

مضتْ الأيام مسرعة، وتحوّلت معها حياتي إلى قطيعة نهائيّة مع عالم عائلتي، ومع كلّ ما يمتّ إلى الله بصلة. كهرتْ نفسي الصلاة والكنيسة والرهبان... وراحتْ بذور الحقد على والدي تنمو في أحشائي، حتّى وصلتُ إلى مرحلة من الكره لا أعتقد أنّ أحدًا على وجه الأرض ماثلني فيها.

الترك! العودة إلى بيت أهلي! البقاء والاستمرار ولماذا؟ وما الغاية؟

عشتُ صراعًا مخيفًا مدّة سنتَين متتاليتَين بدون أن يعرف السلام طريقه إلى قلبي.

وجرى التحوّل الأوّل في حياتي باتجاه اكتساب العلم واكتشاف حقيقة الكون. وبدأتْ مرحلة المطالعة والتحصيل بغية الوصول إلى ما أجهله.

في الدير، استمرّت الحياة كما كانت عليه، وكما ستكون دائمًا، وهمًا متخفٍّ بعباءات باردة تستر حقيقة الفراغ الذي يعيشه مَن يدعون أنفسهم "رهبانًا"، وعلى رأسهم أنا.

خلال فترة دراستي في جامعة الكسليك، رحتُ أبحث عن فتاة أصادقها، غير أنّ محاولاتي باءت بالفشل، ولستُ أعرف الأسباب الحقيقيّة لذلك.

قرار السفر إلى روما

على الصعيد اللبناني تطوّرت الأحداث بسرعة كبرى، ووجب على رؤسائنا أن يتّخذوا قرارًا واضحًا بشأن إبقائنا في لبنان أو ترحيلنا إلى مكان آخر لنتابع فيه دراستنا الجامعيّة. وظهرتْ فكرة السفر إلى روما. ولكن مَن منّا سيُحالفه الحظّ بالسفر والدراسة في مدينة الحضارة والفنّ والإبداع؟

تمّ اختيار أربعة منّا، كنتُ أنا من عدادهم، ولا أزال أسأل نفسي عن سبب اختيارهم لي! وسيكون موقفي بعد عدّة سنوات مساءلة رؤسائي: وفق أيّ معيار قرّرتم إبقائي في الدير؟ وبحسب أيّ شريعة اعتبرتموني أهلاً للكهنوت؟

ما أستطيع قوله عن جميع رفاقي أنّهم جميعًا فشلوا في كلّ شيء. في توزان الشخصيّة، وفي التحصيل العلمي، وفي اكتشاف ذواتهم. وسيدفع كلّ واحد منهم الفاتورة الخاصّة به.

الغريب كلّ الغرابة أنّ أحدًا من رؤسائنا لم ينتبه إلى أنّني لستُ أصلح للحياة الرهبانيّة والكهنوتيّة! وهل يمكن لشخص فاسد وملحد مثلي أن يصلح لمثل هذه الرسالة السامية؟ من هنا يكتشف المرء هشاشة الإدارة التي تختار ما يُسمّى بالدعوات الرهبانيّة والكهنوتيّة، ولهذا السبب وصلت المؤسّسة الكنسيّة إلى ما وصلت إليه من تراجع أدّى بها إلى التحوّل إلى مكان لمَن لا يعرفون ما الذي يجب أن يفعلوه في حياتهم.

ومتى كان المرء فاشلاً في العديد من الأمور، فهذا، بدون شكّ، لن يصلح لأيّ شيء في الحياة، رهبانيّة كان أم كهنوتيّة، زوجيّة كانت أم جماعيّة.

لقد خرج من دفعتنا كلّ صنف من الشباب الضائعين الذين تحوّلوا إلى ضحايا لمَن كانوا هم بدورهم ضحايا الذين سبقوهم...

اتّخذ قرار إرسالنا إلى روما، وتحدّد اسم الرئيس الذي سيكون مسؤولاً علينا. ويا للكارثة هو ذاك الذي يهرب معظمنا من وجهه ويحتاشاه الجميع. كيف السبيل إلى الهرب من السفر إلى روما.

قرّرتُ التكلّم مع رئيسنا بهذا الموضوع، وعلى الرغم من تجاربي السابقة معه، وقلّة ثقتي به، تجرّأتُ وأخبرته عن السبب في رفضي الذهاب إلى روما. أمّا هو فحاول إقناعي بإمكانيّة التفاهم معه والعيش بسلام.

لم تُقنعني حججه، وخرجتُ من عنده بحالة حيرة وارتباك. وما هي إلاّ ساعات حتّى وصل الكلام إلى صاحب العلاقة، عنيتُ به الرئيس المزمع أن يكون مسؤولاً عنّا في روما. فداعني وسألني عن مشكلتي معه. طبعًا، لم أجرأ على الإجابة إلاّ بكلمات خاصّة بطباعي العصبيّة التي قد لا تنسجم معه ومع أسلوبه التربويّ.

في نهاية المطاف، وجب عليّ أن أتّخذ القرار النهائيّ، وكان القبول بالذهاب إلى روما. لا أعرف لماذا ذهبتْ وكيف قبلتْ، بل أعرف شيئًا واحدًا أنّ صفحة جديدة ستُفتح في حياتي، وسيكون عنوانها الجحيم الذي يفوق جهنم.

حُدّد موعد سفرنا إلى روما في أيلول. ووجب علينا متابعة دروس في اللغة الإيطاليّة، غير أنّ هذه الدروس لم تكن سوى لشهر واحد ومع الرئيس الجديد الذي سيرفقنا إلى عاصمة الحضارة.

لم نتقن من هذه اللغة الجديد إلاّ بعض الكلمات التي لا شكّ في أنّها لا تكفي ولا حتّى للالقاء التحيّة على شخص إيطالي.

ذهبنا كلّ إلى بلده لتحضير جواز السفر والحصول على تأشيرة دخول إلى إيطاليا. ومضت الوقت مسرعًا، وإذ بنا نجد أنفسنا في بهو المطار صحبة الأهل الذي رافقونا والدموع تسيل على خدودهم.

توقّعتُ كلّ شيء إلاّ أن يكون لقرار ذهابنا إلى روما قصة طويلة دراميّة ستُزّج حياتنا كلّها ضمن أطرها وأحداثها وتفاعلاتها. كم من الغايات الشخصيّة تسترّتْ وراء هذا الموضوع! وكم من الدسائس والمكائد ستحاك! والثمن سندفعه نحن دائمًا.

باكورة ثمار المطالعة

بعد أن قرّرتُ الولوج إلى عالم الكتب، وشرعتُ في وضع خطّة تثقيفي الذاتي، رحتُ أنتقي الكتاب تلو الآخر لعلّي أجد في أحد هذه المجلّدات أجوبة على تساؤلاتي.

وكان لكتاب القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم الذي حمل عنوان "الكهنوت" الوقع الأكبر في حياتي حتّى إنّي لا أزال حتّى هذه اللحظة أحفظ نصوصه.

ما إن عرفتُ حقيقة سرّ الكهنوت، ولمستُ جزع هذا القدّيس العظيم إزاءه، ورفضه قبول الرسامة بسبب اعتباره ذاته غير مستحقّ لها، حتّى بادرتُ، بدون أن أدري كيف، إلى مقارنة ذاتي به. وسرعان ما اتّخذتُ القرار الأهمّ في حياتي: لن أصير كاهنًا أبدًا، وسأختار البقاء كراهب بسيط في الأديرة.

طبعًا لم يرق هذا الطرح لرؤسائي، وحاولو إقناعي بشتّى الوسائل، ولكن بدون جدوى. وسيكون هذا الأمر موضع جدل بيني وبينهم بعد انتهائي من الدرس في روما.

مناشدات لم تجد مَن يسمعها

لعبت مطالعاتي دورها في تكوين فكرة معيّنة عن إمكانيّة إصلاح للحياة الرهبانية وغاياتها التي اعتبرتُ أنّ الزمن قد تخطّاها. وحاولتُ مرارًا إقناع رؤسائي وغيرهم من الكهنة بضرورة الانتباه إلى كفاءات التلاميذ واستثمراها لم فيه خيرهم وخير المؤسّسة الرهبانيّة، وعرضتُ عليهم الإفساح بالمجال أمامنا للتخصّص في المجالات التي نميل إليها من جهة، والتي قد تخدم المؤسّسة من جهة أخرى. وطرحتُ الأسئلة: لماذا لا يكون هذا طبيبًا وكاهنًا، وذاك مهندسًا وكاهنًا، وآخر محاميًا وكاهنًا... لماذا الإلحاح على فكرة الكهنوت؟ وما الهدف من إلزاميّة دراسة الفلسفة واللاهوت؟

في الواقع، لمستُ أنّ دروس الفلسفة واللاهوت قد فتحتْ أمامنا أنفاقًا جديدة، وأدخلتنا في متاهات زادتْ على أزماتنا النفسيّة والروحيّة أزمات أخرى أشدّ وطأة وأصعب شفاءً.

لقد تعلّمنا في كليّة الفلسفة التعصّب الطائفي، ورأينا الأساتذة يعلّموننا كلّ على هواه. ويعطوننا المواد كما يفهمونها وكما وصلتْ إليها قناعاتهم.

للمرّة الأولى في حياتي شعرتُ بثقل الكتاب المقدّس وتعقيداته. وللمرّة الأولى اكتشفتُ أنّ هناك مشكلة في البرهان على قيامة المسيح تاريخيًّا. هكذا ودواليك.

خرجتُ من الجامعة شخصًا متطرّفًا وملحدًا في آن معًا. ولا أزال أتخيّل نقاشاتنا السخيفة حول الطقوس واستعمال المبخرة ونوعيّة الترتيل وأقدميّة النصوص الليتورجيّة...

إنّي اليوم نادم أشدّ الندم على كلّ لحظة أمضيتها في مثل هذه المجادلات السخيفة التي زادت من إلحادي وتطرّفي.

عشق لبنان

في الجامعة، واظبتُ على حضور المحاضرات التي كانت تصير للعامّة، وأنصتُّ إلى كبار المفكّرين أمثال المرحوم شارل مالك، والأديب سعيد عقل وغيرهم. وبدأت قصّة عشقي الحقيقيّة للبنان.

استيقظ في داخلي نوع من الوعي الغريب تجاه خصوصيّة الهويّة اللبنانيّة، ونما فيّ حبّ غريب للموارنة على الرغم من النفور منهم على المستوى الكنسي.

نمت براعمي وبدأتُ أخطّ ملاحظاتي على دفاتر... ولم أتصوّر أن ما كنتُ أكتبه سيكون نوعًا من النبواءات في يوم من الأيام.

ولم أعرف حقيقة مشاعري تجاه لبنان إلاّ بعد أن حطّت بي الطائرة في مطار روما.

الفصل السادس

محاولات ارتداد فاشلة

كم قاسٍ ومؤلم أن يستيقظ المرء في يوم من الأيام ليجد نفسه يبدأ من نقطة الصفر!

لطالما كانت حياتي كلّها نقاطًا وأصفارًا، ولم أشعر يومًا بأنّي تخطيّت مرحلة البداية في أيّ عمل أنجزته، أو في أيةّ مرحلة حياتيّة انطلقت بها ومنها.

بدأتُ مجدّدًا من نقطة الصفر، كما كانت كلّ برهة من حياتي. ربّما الحياة مع الله تتطلّب دومًا الانطلاق من نقطة الصفر للعودة إليها! لا أعلم.

في لحظات خلوتي مع ذاتي، ومنذ أن بدأتُ بكتابة فصول اعترافاتي، وأنا أتألّم في داخليّ، وأشعر بصور الماضي تلاحقني، وأتخيّل صور الذين جعلوا من حياتي وحيوات مَن عرفتهم وأحببتهم ألمًا متواصلاً وضياعًا وربّما موتًا داخليًّا، وهربًا نحو العبث والمجهول.

يا إلهي، لطالما بحثتُ عن السلام لذاتي وفيها، ولطالما حاولتُ زرعه في كلّ محيط عملتُ فيه. لقد دافعتُ عن المظلوم ووقفتُ في وجه الظالم، وعرّضتُ حياتي برمّتها للأخطار، وكم تلطّخت سمعتي على أيدي أناس لم يعرف الحبّ طريقًا إلى قلوبهم.

يا إلهي، أبحث عن ومض لمستقبلي، عن مستقبل أفضل تكون أنت فيه السيّد المطلق. أبحث عن تغيير جذريّ ينقلني إلى حالة من السلام تُشبه سلام السماء.

أسأل نفسي، أيّ جرأة هي هذه أن أكتب اعترافاتي، وأروي للناس حقيقتي، وكأنّ حقيقتي ستكشف ظلامي الداخلي. ولكن لستُ مظلمًا بهذا المقدار، وإلاّ لما تجرّأتُ على السير قدمًا في كتابة هذه الفصول!

ولكن، إلى أين سأصل؟ هل سأختم الفصل الأخير بالتخلّي عن الكهنوت؟ هل سأبحث عن فتاة أرتبط بها بعد هذا العمر الذي انقضى نصفه؟ مَن يستطيع العيش معي؟ ومَن يمكنه أن يقبلني بعيوبي الكثيرة وانحرافاتي التي لا عدّ لها ولا حصر؟

منذ يومَين، اتّصلت بي إحدى القريبات منّي، لتطرح عليّ بعض الأسئلة الخاصّة بعملها الذي كنتُ أنا موجّهها إليه على الرغم من معرفتي السابقة بالمكان الذي ستذهب إليه، والأشخاص الذين ستعمل لصالحهم. وشعرتُ من خلال حديثها، أنّ مجرّد ذكرها لاسمي أمام أرباب عملها، (وهم في المراتب العليا)، قد لمستْ عندهم نوعًا من النفور تجاهي. كم تألّمتُ إذ عادتْ بي ذاكرتي إلى تلك الأيام التي عملتُ فيها عند هؤلاء القوم، وكم رأيتُ من النفاق والكذب وأساليب الخداع والسرقة... سامحني، يا إلهي، لستُ أدين أحدًا... إنّهم ضحايا كما أنّي أنا ضحيّة...

صورهم تلاحقني، ومشاهد تعاملهم مع مَن هم حولهم تقضّ مضجعي. هؤلاء دمّروا ذلك الرجل الذي انتشلني من وهدة الهلاك، ونقلني من الموت إلى الحياة... سامحهم الله وأنار قلوبهم بأنوار السماء.

ربّما لا يحقّ لي أن أتوجّه إلى الله بمثل هذا الدعاء، اغفر لي يا ربّ حتّى هذا النوع من الدعاء.

يا إلهي، أنقذني من خفيّات أفكاري، ومن التباسات ظنوني، وامحو من ذاكرتي كلّ تصوّر مؤلم من ماضيّ ومن ماضي الذي عشتُ وإياهم، وتسبّبتُ لهم بالألم، وتسبّبوا لي بالعذاب.

محاولات ارتداد فاشلة

حطّت بنا الطائرة في مطار روما الكبير، ومنه انطلقنا إلى ذلك المعهد الأثريّ العريق حيث سنمضي فترة أشهر قبل أن ننتقل إلى ديرنا الجديد الذي كان قيد الإنشاء.

شعرنا بالغربة من جرّاء جهلنا للغة. وبدأنا نبحث منذ اللحظة الأولى عن رفاق يتكلّمون العربيّة أو الفرنسيّة.

وعلى الرغم من وجود رئيس أجنبيّ للمعهد، كنّا نخضع مباشرة لسلطة رئيسنا الذي أتى برفقتنا إلى روما ليكون في ما بعد رئيس ما يُسمّى بـ"الإكليريكيّة الكبرى" في روما.

أمضينا الشهر الأوّل ونحن نحاول اكتساب اللغة الإيطاليّة لأنّ موعد افتتاح السنة الجامعيّة كان قد اقترب.

كنّا نتخيّل أنفسنا سنحصل على بعض الحريّة في وضعنا الجديد هذا، إلاّ أنّ وجود رئيسنا الشاب وأسلوبه في التعامل معنا، جعلنا نفقد الأمل، منذ بداية الطريق، بنمط حياة أفضل، ولمسنا أنّ ما عشناه في لبنان سنعيشه في روما ولكن في إطار ثقافيّ وجغرافيّ مختلف.

كانت الأشهر الأولى صعبة جدًّا من الناحية الدراسيّة بسبب افتقارنا إلى اتقان اللغة الإيطاليّة. حاولتُ التقرّب من بعض الإيطاليّين الذين كانوا معنا في المعهد، وصرتُ أطرح عليهم السؤال تلو الآخر محاولاً اكتساب أكبر كمٍّ ممكن من المعلومات.

لا أزال أذكر تلك المرّة الوحيدة التي طرحتُ خلالها سؤالاً على رئيسنا، فاندفع نحوي غاضبًا ومؤنّبًا إياي لجهلي للجواب. فاتّخذتُ قراري بالتحليق لكي لا أكون في موقف إذلال مشابه للذي حصل معي.

وأتتْ انطلاقتي "صاروخيّة" على جميع الصعد. يجب أن أكون من المتفوّقين. وهذا بالفعل ما نجحتُ به وإن على حساب صحتي.

مرّت الأشهر الأولى بسرعة، وإذ بنا أمام امتحانات منتصف السنة. كم حمدتُ الله لكون نظام الجامعات في إيطاليا يفسح في المجال أمام التلاميذ لتقديم امتحاناتهم بإحدى لغات المجموعة الأوروبيّة. نجحتُ في جميع المواد التي قدّمتها إمّا بالفرنسيّة أو بما اكتسبته من الإيطاليّة.

ومنذ الفصل الأوّل شدّني أستاذ ألمانيّ كان يعلّمنا اللاهوت العقائديّ، وشعرتُ بأنّي معه سأتمكنّ من تخطّي الكثير من انحرافاتي. كانت كلماته تخترق قلبي لتلج إلى عمق أعماقي، وبدأتْ ألمسث تغييرًا بسيطًا في داخلي.

طبعًا، لا شكّ في أنّ الانتقال من مكان إلى آخر، ومن دولة إلى أخرى، قد شكّل عنصرًا رئيسًا وهامًّا في ابتعادي عن عالم أفلام الدعارة. ولا شكّ في أنّ هذا العالم الجديد ونوع الأساتذة الأوروبيّين، وبداية مرحلة نضجي، قد لعبتْ جميعها أدوارها في نموّ شخصيّتي وارتقائها من عالم الملذّات إلى عالم الفكر بجميع فروعه وتشعّباته.

على صعيد آخر، بدأت في حياتي مرحلة التطرّف "البيزنطي" وذلك بسبب ما كنتُ أسمعه في المعهد من تعصّب الأوروبيّين الشرقيّين المناهضين للغرب وفكره. وسرعان ما تغلغت أفكارهم في عقلي وامتزجتْ ببنيتي النفسيّة، وصرتُ أتحوّل، بدون أن أشعر، إلى يمينيّ متطرّف للشرق وتراثه الغنيّ (الفارغ بنظري اليوم).

جميع الذين في المعهد تقريبًا متعصّبون لكلّ ما يمتّ إلى بيـزنطية بصلة، من الموسيقى إلى الليتورجيّة والطقوس التي كانت متقنة إلى حدّ كبير.

وبنتيجة تأثّري بهذا المحيط الجامعيّ الجديد، وجدتُ نفسي أعود إلى قرارة نفسي. وصرتُ أفحص ضميري وأحاول الندم على خطاياي، إلى أن قرّرتُ الذهاب والاعتراف بخطاياي، والتوجّه نحو الله بخطوات جديدة.

في بعض الكنائس الكبرى بروما درجت عادة وجود كهنة جالسين في كراسي الاعتراف على مدار ساعات النهار، ويستمعون إلى اعترافات الناس بمختلف اللغات الأوروبيّة. ذهبتُ إلى إحدى هذه الكنائس، وبنيّتي الاعتراف والتوبة، وفتح صفحة جديدة بحياتي، غير أنّ صدمتي كانت كبيرة عندما تعامل المعرّف مع توبتي برتابة وكلاسيكيّة لطالما مللتهما وهربتُ منهما، وراح يستفيض في التحقيق معي عمّا إذا كنتُ قد أكلتُ لحمًا يوم الجمعة، وكم مرّة فعلتها. أتخيّل لحظة خروجي وكأنّها الآن، وكيف لم أنتظر الحلّ على خطاياي، بل نهضتُ وانطلقتُ غاضبًا ومشمئزًّا. ومرّ ذلك اليوم طويلاً واكبه شعور رهيب ومخيف بأنّ الله لا يبالي بي وبتوبتي.

وما إن حلّ شهر آذار ببرده الممزوج بربيع مشمش حتّى تلقّينا خبر مرض والد رئيسنا وإشرافه على الموت، الأمر الذي اضطرّ رئيسنا إلى تركنا والسفر إلى الشرق لوداع والده الذي أشرفت شمس حياته على المغيب.

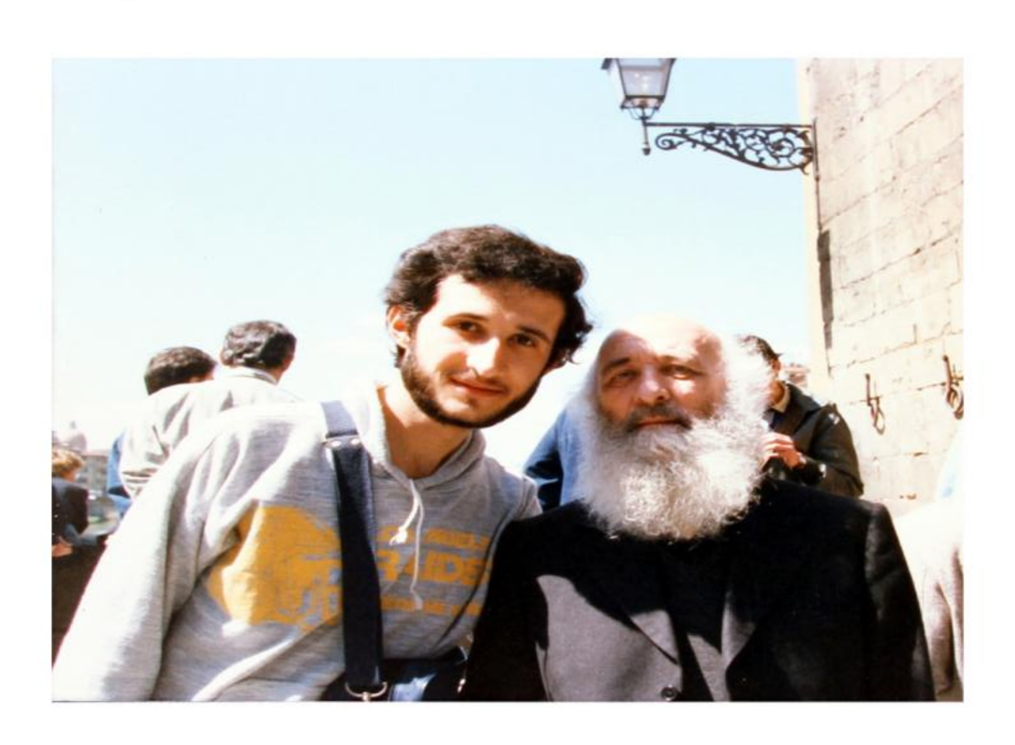
يصدق هنا المثل "مصائب قوم عند قوم فوائد"، فقد عشنا نشوة فرح مرّت مسرعة، نحن أحرار لأوّل مرّة في حياتنا. حاولنا الاستفادة من غياب الرئيس لنمارس ما كنّا نحلم بممارسته من الذهاب إلى الحدائق العامّة، والسير على الطرقات واستشكاف جمال روما.

مضت الأيام وكأنّها طرفة عين، وعاد رئيسنا بعد أن شارك في مراسم وداع والده الذي غادر إلى الأخدار الأبديّة. قدّمنا واجب التعزية، واستمعنا منه على أخبار الأهل والأصدقاء.

أكملت السنة فصولها، وجاءت امتحانات الفصل الثاني لتُلقي بثقلها على كواهلنا. من ناحيتي كنتُ قد حلّقتُ لغويًّا وعلميًّا، وصرتُ "جرذ مكتبات" إذا صحّ التعبير.

وخلال هذه الفترة، كنّا نذهب كلّ أحد إلى إحدى الكنائس المستعملة لخدمة الشرقيّين في روما القديمة، وهناك كان عَود إلى الفوضى والسطحيّة والتمثيل. مسرح قائم بحدّ ذاته، ولقطات مسرحيّة رائعة تمتزج فيها روعة الرياء مع جمال النصّ الليتورجيّ الذي كانت غايته إغواء أكبر عدد من الناس وإغرائهم. إنّه الشرق العريق والغنيّ بطقوسه وألحانه وأبّهته! كنّا نقرأ ردّات الفعل على وجوه الناس الذين ربّما كانوا يبحثون عن أساليب تقوى جديدة وقد ملّوا من طقوس التقليد اللاتيني. كنّا نمارس كلّ شيء في هذه الكنيسة إلاّ الصلاة.

ولكي تكتمل مشاهد الرئاء والزيف التي احترفنا التفنّن في إخراجها، كنّا نذهب في مختلف المناسبات إلى هذه المنطقة أو تلك، من جنوب إيطاليا إلى شمالها حيث كان لرئيسنا أصدقاء عديدون من كهنة وعلمانيّين. وهناك كنّا نُستقبل بحاوفة الفاتحين، فنعرض لهم مسرح الدمى المتحرّكة البيزنطيّة، ونستمتع بنشوة الحضور. ثمّ تأتي المرحلة الثانية من الحصاد، عنيتُ بها الولائم التي كانت تُقام على شرفنا كفنّانين مبدعين يعرفون أن يلعبوا أدوارهم باحتراف تامّ.



كم كنتُ أكره نفسي في هذه المواقف المرعبة التي طالما أشعرتني بحقارتي وزيفي.

من ناحية أخرى، تعرّفنا على تجمّع الإكليريكيّين الشرقيّين في روما، وهناك حدّث بلا حرج عن التصنّع والزيف. كم كنتُ اشمئزّ من تلك اللقاءات السطحيّة مع إكليريكيّين شرقيّين كان الأجدر بهم الانضواء تحت سقوف المصحّات النفسيّة. كيف يمكنني نسيان النهم على الطعام، والأحاديث التي طالما تمحورتْ حول عظمة الشرق الوهميّة. أضف إلى ذلك، أولئك الإكليريكيّون الشرقيّون الذين لم يأتوا طلبًا للعلم والتحصيل، بل ليجدوا وسيلة يستقرّون بواسطتها في الغرب. وبالفعل ترك العديدون من بينهم بعد أن جذبوا الشابّات الإيطاليّات بأنماط أحاديثهم وأساليب عيشهم.

ولستُ أنسى، ولو تخطّى عمري المائة، ذاك الإكليريكيّ الذي روى لي ملحمة مضاجعته لإحدى الراهبات. ووصف لي كيف أدخلها إلى غرفته، واستفاض بسرد تفاصيل القصّة.

جميع هذه الأمور والأحداث، دفعت بي إلى مضاعفة كميّة السجائر التي أدمنتُ تدخينها، ونقلتني إلى عالم جديد من نوعه، عالم المشروبات الكحوليّة التي سرعان ما صارت تشكّل جزءًا لايتجزّأ من برنامجي اليومي. حتّى إنّي خلال فترة قصيرة تحوّلت إلى مدمن محترف لا يستطيع دخول قاعة المحاضرات الجامعيّة صباحًا بدون احتساء ال "Caffé corretto" القهوة الممزوجة بالكونياك. وما أن يتلاشى مفعولها عند الساعة العاشرة صباحًا حتّى تراني أهرع إلى أقرب متجر يبيع الكحول لأخذ الجرعة المطلوبة من الويسكي أو الكونياك أو ما شابه. وعندما استفحلت الآفة في جسمي، صرتُ أشتري الزجاجة تلو الأخرى وأخفيها تارة في الخزانة بين ثيابي، وطورًا في إحدى زوايا الحمّام، وصولاً إلى خزّان الماء.

واستمرّ بي الحال على هذا المنوال طيلة سنوات وجودي في روما، حتّى صار صوت سعالي أشبه بزلزال يرجّ مبنًى بأكمله. ولا أزال، حتّى هذه اللحظة، أعاني من ذيول ذلك الإدمان. أشكر الله أنّ أحدًا لم يعرض عليّ جرعة مخدّرات، وإلاّ...

انتهى العام الدراسيّ، ووجب أن ننتقل إلى ديرنا الجديد الذي شُيّد خصّيصًا لإقامتنا. وستكون السنوات الأربعة التي أمضيتها في هذا المكان جحيمًا لا يُطاق. بدأنا التنظيف والعمل في الحديقة الكبيرة. وقُدّر لنا العيش في سجن جميل المظهر.

في هذا الدير الجديد، عشتُ الإرهاب على أصوله. رعب متواصل، وبحث دائم عن مخارج نفسيّة. وسرعان ما تحوّل وجودنا كطلاّب إلى خدّام للضيوف الذين لم ينقطعوا عن موائدنا إلاّ لنراهم مجدّدًا. ولم نكن نعلم أنّ رئيسنا كان يُخطّط لغايات في نفسه، من خلال هذه الدعوات والولائم، والموائد المتنوّعة.

وفجأة ومضَ بريق في حياتي، وعلى غير انتظار منّي.

معجزة القدّيس فرنسيس الأسّيزي

في أحد أيام الصيف، قرّر رئيسنا أن يصطحبنا لزيارة أسّيزي والتعرّف على ضريح القدّيس فرنسيس. بالمناسبة، لطالما كرهتُ الخروج معه في أيّة نـزهة من أيّ نوع، بسبب تصرّفاته وردّات فعله الغريبة العجيبة، واختلاقه للشجار على أتفه الأمور. أضف إلى ذلك أنّ مثل هذه الرحلات كانت عقابًا هائلاً لجسمي الذي تعوّد على الكحول والدخّان، إذ كيف يمكنني احتساء الكحول والتدخين أمامه وبحضوره!

انطلقنا صباحًا، بعد أن رجونا السماء وما ومَن فيها، ألاّ يُعكّر مزاجه أمر، وبعد ساعات غير طويلة، وجدنا أنفسنا في المحطّة الأولى: "كاشّيا" وضريح القدّيسة ريتا. لم أشعر بشيء من الجمال أو الرهبة، على عكس ما كنتُ أسمعه من الناس الذين حجّوا إلى مقامها. ثمّ انطلقنا نحو أسّيزي يرافقنا الملل من جهة، وحبّ الاستكشاف من جهة أخرى.

وحصلت المفاجأة الكبرى.

ما إن وطأتْ قدماي كنيسة القدّيس فرنسيس حتّى شملني شعور بالرهبة لا يمكنني وصفه بكلمات بشريّة. ووجدتُني أبكي بدون أن أعرف لماذا. فجثوتُ أرضًا، ورحتُ أتمتمُ بكلمات وجمل لا أذكر واحدة منها. لمسني كيان أو كائن أو شخص (أو لا أعرف ماذا) وهزّ أركان هيكلي الداخليّ. وللمرّة الأولى، بعد سنوات، لمستُ حضور الله في مكان ما من هذا العالم.

يشهد الله أنّي لم أغادر هذا المكان إلاّ مرغمًا.

في طريق العودة، أحسّ رفاقي بأنّ شيئًا قد تغيّر فيّ. وحاولوا محادثتي غير أنّي كنتُ في عالم آخر.

هكذا بدأت قصّة عشقي للقدّيس فرنسيس من جهة، وارتدادي المتقطّع من جهة أخرى.

بقيتْ نشوة هذا اللقاء الرائع مع عالم السماء ترافقني مدّة أسابيع. وسيستمرّ وميضها يلمع في داخلي حتّى هذه اللحظة.

لا أجد في داخلي رغبة بالتكلّم عن سفري الأوّل إلى سويسرا خلال صيف السنة الأولى في الغرب. كان الأمر أشبه بزيارة سياحيّة لم أحبّ خلالها سويسرا كما عشقتُ إيطاليا.

هناك العديد من الأحداث التي حصلت خلال السنة الأولى، لستُ أذكر منها الشيء الكثير. يمكنني التوقّف عند بعض المشاهد الطريفة التي عشتُها برفقة زملائي من يونانيّين وإيطاليّين وألبانيّين وعرب من مختلف الجنسيّات، منها على سبيل المثال الأخطاء اللفظيّة التي كنّا ننطق بها وتُثير الضحك. غير أنّي لستُ أنسى وجوه بعض الزملاء الذين أحببتهم. ولا أزال أذكر المرّة الأولى التي وجدتُ نفسي خلالها ملزمًا بتلاوة جميع صلوات القدّاس باليونانيّة، وكم تلعثمتُ وخجلت!

كيف أنسى ذلك الرفيق الذي كان يتأخّر في الاستيقاظ صباحًا، ويدخل الكنيسة بعد تلاوة الإنجيل، وعندما سُئل عن السبب أجاب: "لينكسر سمّو". هذا الرفيق سيلعب دورًا حاسمًا في حياتي، وسيكون واحدًا من الأسباب التي دفعتني إلى اتخاذ قرار ترك الكهنوت للمرّة الثالثة من بعد رسامتي.

مضى الصيف مسرعًا، وانضمّ إلينا عدد من التلاميذ الذين أُرسلوا للدراسة في جامعات روما.

السنة الثانية

بدأت السنة التالية مع وصول طبّاخة عربيّة، وكانت امرأة من أقرباء رئيسنا، وكانت متقدّمة بالسنّ نوعًا ما.

في البداية، كنّا حائرين في طريقة التعامل معها، غير أنّها كانت لطيفة. ولكنّ الأمور تعقّدت مع وصول رسّام استقدمه رئيسنا من حلب لكي يُزيّن الدير الحديث بلوحاته الفنّيّة الجميلة. لن أخوض في تفاصل الأمور الداخليّة التي حدثتْ في تلك السنة لأنّ ذاكرتي تخونني. جلّ ما في الأمر أنّ الحياة قد أصبحت أكثر تعقيدًا من قبل، وأنّنا كنّا نعيش تحت مراقبة شديدة، وجب علينا أن نتّخذ تجاهها كلّ الحذر.

وبما أنّ رئيسنا كان من محبّي الحيوانات، فقد اقتنى كلب حراسة وضعه في حديقة الدير... لم يمضِ وقت طويل ختّى أصبح هذا الكلب خير صديق لي. وكنتُ أُفرّغ له جميع همومي وأشجاني وأنا واثق من أنّه لن يتفّوه بكلمة لأحد.

على المستوى الدراسيّ أكملتُ السعي قدمًا نحو أفضل التحصيل، وبدأت مواهبي تسترعي انتباه أساتذتي، وارتفع معدّل علاماتي، وتمكّنتُ تمامًا من اللغة الإيطاليّة. اضف إلى ذلك أنّي صرتُ أساعد رفاقي في دروسهم، لا بل كنتُ أُنجز للبعض منهم أعمالهم التطبيقيّة.

ربّما في هذه المرحلة ولد في داخلي الشعور بالأبّوة، لأنّي كنتُ أعامل رفاقي بدفء وحنان منقطعَي النظير.

وأدّى ارتفاع نهمي للعلم إلى تقلّص عدد ساعات نومي الأمر الذي أدّى إلى تراجعي صحّيًّا، وما هي إلاّ أشهر قليلة حتّى بدأتُ أعاني من آلام في عظامي. وزداد سعالي بسبب نهمي على التدخين.

من الناحية الروحيّة، ارتبطت صلاة الجماعة بمزاجيّة كلّ من بعض الطلاّب من جهة، والرئيس من جهة أخرى. أدمن البعض منهم عادة التغيّب عن الصلاة الصباحيّة والقدّاس، الأمر الذي كان يُثير غضب الرئيس، فتتحوّل الصلاة إلى مشاجرة، ويصبح القدّاس حفلة جنون حقيقيّ. كم من مرّة لم يكن بعضنا قادرًا على الترتيل بسبب النعاس أو بسبب الملل من رتابة الصلاة والقدّاس، وكانت ردّة فعل رئيسنا أن يفقد صوابه، فيبدأ الصلاة بمفرده أو يكمل القدّاس وهو يقوم بدور الكاهن والمرتّل في آن معًا.

وعندما تنتهي حفلة الغضب الصباحيّة داخل جدران الكنيسة، كنّا ننتقل إلى المائدة لتناول الفطور حيث الأجواء مشحونة، والجميع في حالة ترقّب انفجار محتمل.

في مثل هذه الأجواء، طالما بدأتُ يومي بالتشنّج، ولم أجد أمامي من وسيلة للتخفيف عنّي سوى زيادة نِسَب الكحول والدخان.

مع مرور الوقت تحوّلت العلاقة مع رئيسنا إلى نوع من النديّة، وصار البعض يكيل له بدل الإهانة إهانات، وكنّا ندفع الثمن تشنّجًا وقلقًا.

وسرعان ما صار يجد نفسه وحيدًا في غرفة السهرة مساءً، إذ نتركه بعد العشاء ويصعد معظمنا إلى غرفته، ليبقى وحده صحبة الطبّاخة والرسّام ونفر أو اثنين من التلاميذ.

أمّا موعد إطفاء الأنوار في الغرف فصار بدوره يُشكّل أزمة لنا وله. من ناحيتي كنتُ أسهر حتّى الواحدة أو الثانية فجرًا على ضوء لمبة ليليّة أتركها مضاءة بقرب سريري حيث كنت أجلس وأتلحّف وأتابع قراءاتي ودروسي.

كم من مرّة رجّ الدير ليلاً بصوته يصرخ على هذا أو ذاك!

بالمختصر اتّسمت حياتنا على امتداد سنوات دراستي في روما بالهستيريا المتواصلة التي نادرًا ما كان الهدوء يعرف طريقه إليها.

من ناحيته، كانت لرئيسنا صداقات واسعة مع الرهبان الفرنسيسكانيّين، وكان، على غرار السنة الأولى، يصحبنا معه للاحتفال بالقدّاس في بعض أديرتهم وبعض البلدات، خاصّة خلال أسبوع الصلاة من أجل وحدة المسيحيّين. وقد لعبت هذه اللقاءات دورها في حياتي، ووجدتُني أقترّب أكثر فأكثر من روحانيّة القدّيس فرنسيس الأسّيزي الذي أسر قلبي وعقلي خلال زيارتنا لضريحه. وسرعان ما تحوّلت نظرتي للكنيسة نظرة شابّ يتفتّش عن وسيلة ليصنع فيها تغييرًا جذريًّا يقلب فيه جميع المقاييس. وترسّخت قناعتي برفض الكهنوت والاكتفاء بعيش حياة رهبانيّة بسيطة. كما توطّد في داخلي الخوف من الكهنوت الذي امتزج مع مقارنة أخلاقي بأخلاق القدّيسَين فرنسيس ويوحنّا فم الذهب. وسأدخل في دوّامة خطيرة من البحث عن الذات.

في هذه السنة أيضًا ولجتُ إلى عالم الفيلسوف هيجل، وجذبتني مؤلّفاته، فصرتُ أضع خطط إصلاح الكنيسة، وأحلم بتفيذها في يوم من الأيام.

على المستوى الروحي، كانت النار مستعرة في داخلي، والبحث عن المسيح متواصل، غير أنّي كنتُ لا أزال أفتقر إلى مرشد يوجّهني. وكانت صلاتي الفرديّة جملة وحيدة: يا إلهي، تعرف أنّي شرير، تدخّل وغيّر حياتي. لا شيء سوى هذا الابتهال الذي طالما ردّدته لسنوات.

مرّت السنة الثانية صاخبة ومليئة بالخوف والاضطراب والصراعات، والعمل المضني في حديقة الدير.

وانتهت امتحاناتها التي حصّلت فيها على نتائج رائعة.

في هذه السنة أيضًا تعرّفتُ على شابّ سويسريّ كان يتابع دروس اللاهوت معي، وارتبطتُ معه بعلاقة صداقة متينة طيلة فترة الدراسة، ودعاني لزيارته في سويسرا، فذهبتُ إلى سويسرا للمرّة الثانية صحبة أحد رفاقي الحلبيّين. وكانت لي محطّة لتعلّم مبادئ اللغة الألمانيّة. غير أنّ هذه الزيارة، على الرغم من كونها قد اتّسمت باللهو والمرح بعد سنة من المعاناة، إلاّ أنّها زادت من شكوكي تجاه هذا الصديق الذي لمستُ عنده ميولاً مثليّة الجنس من جهة، ومحاولة رفيقي الحلبي الارتباط بعلاقة عاطفيّة مع شقيقته.

وعلى الرغم من أنّني لم ألمس منه إلاّ كلّ مودّة واحترام، استمرّ في داخلي صراع طويل الأمد لم ينتهِ إلاّ بعد سنتَين ونيّف عندما دعوته إلى زيارة حلب، وأتى وقمنا بجولة في أرجاء سوريّة كنتُ خلالها أتعرّف للمرّة الأولى في حياتي على معالمها الأثريّة. لقد وقف إلى جانبي في الأزمات والمحن، وساعدني ماليًّا في أوقات الشدّة، غير أنّي لم أثق به يومًا. إلى أن قرّرت قطع كلّ علاقة معه كي لا أشعر بخيانتي لصداقته ومودّته.

كنّا أمام عطلة نهاية السنة التي وجب أن نمضيها بين الدير في لبنان وعند أهلنا.

حطّت بنا الطائرة في مطار حلب حيث كان الأهل بانتظاري، ومشهد أختي حبيبتي المتلهّفة لمعانقتي والدموع تسيل على وجنتَيها. تغيّرت الانطباعات هذه المرّة، لأنّ مكاريوس أصبح تلميذ جامعات الغرب، ولمستُ نوعًا من الفضول عند جميع مَن اجتمعتُ بهم من أفراد أسرتنا لمعرفة ما اكتسبته من علوم.

أمّا والدي، فأكمل أسلوبه السلبيّ في التعامل معي. وكانت الهوّدة تتّسع بيننا. ولطالما عاش حياته مقتنعًا بأنّي لا أعرف طعم السجائر، غير أنّه أحسّ بأنّ مدمن على الكحول.

ذهبنا إلى الدير في لبنان والخوف يُسيطر علينا، فلا سبيل لأن نكشف لأحد حقيقة ما نعيشه من مآسٍ في روما. وبالتالي صوّرنا حياتنا للمسؤولين في لبنان جنّة من جنان الخلد.

انقضتْ الفرصة الصيفيّة بسرعة، وكانت مدّة شهر، على ما أذكر. وعدنا إلى حلب للانطلاق من مطارها، حيث تكرّر مشهد الدموع والبكاء، ورأيتُ أختي تنهار أرضًا وهي تودّعني.

كان السفر عقوبة لا يستحقّها حتّى المجرمون بنظري، ولطالما كرهتْ نفسي البقاء في روما مدّة أطول.

السنة الثالثة، سنة الفضائح العلنيّة

وصلنا إلى روما حيث كان قد سبقنا عدد جديد من التلاميذ، وسيكون لهم الأثر الكبير في تأزّم الأوضاع داخل الدير.

بدأت السنة مع طبّاخة جديدة استقدمها رئيسنا من حلب، وقد لعبت فعلاً دور الأمّ الحنون علينا جميعًا وعليّ أنا بشكل خاصّ.

وجب علينا بداية التأقلم مع الطلاّب الجدد الذين وإن كنّا نعرفهم منذ سنوات إقامتنا في لبنان، إلاّ أن علاقتنا ببعضهم بدأت متعثّرة خصوصًا وأنّ من بينهم اثنين من الموالين لرئيسنا، واحد منهم سيكون جاسوسه الخاص، بل رفيقه وملازمه حتّى آخر سنة لي في روما، والثاني سيحاول عبثًا التوفيق بين علاقته بنا وبالرئيس.

منذ الأسبوع الأوّل لوصولنا ظهرت إشارات اللعب على المكشوف من قِبَل رئيسنا ومن قِبَلنا. ولم تمضِ أسابيع حتّى عدنا إلى عصر التمييز بين الطلاّب، وانقسم الطلاّب المتنافرون أصلاً إلى فريقَين وربّما ثلاثة. فريق محايد، فريق يحاول التوفيق، وأنا من بينه، فريق الأقلّيّة المدعومة من الرئيس والمحسوبة عليه.

على امتداد السنة ذقنا كلّ نوع من أنواع القسوة والجفاء، وعشنا أيامًا لا أتمنّاها لعدوّ. وصار حتّى التعامل مع المرض رهن مزاجيّة الرئيس وميوله تجاه المريض بيننا، حتّى إنّ واحدًا من الطلاّب الجدد وصل إلى شفير الموت وأُصيب بحوالي أكثر من ثلاثمائة قرحة في أمعائه من شدّة المعاناة النفسيّة.

خطّت هذه السنة ملامح معاناتي الداخليّة التي امتدّت للسنوات التي تلت، وفقدتُ الشهيّة للطعام، وصرتُ أتمنّى الموت لعلّي أنتهي من هذا الشقاء الذي طال أمده. غير أنّ الله وضع في طريقي شخص هذه الطبّاخة الحنون التي راحت تهتمّ بي وتحاولُ إطعامي ومساعدتي على التخلّي عن الكحول بدون جدوى. وكانت تستغلّ غياب رئيسنا لتصعد وتنظّف لي غرفتي.

واستجاب الله لدعائي، ووضع في طريقي كاهنًا مرشدًا كان بدوره من المقرّبين إلى الكهنة الفرنسيسكانيّين أصدقاء رئيسنا، تعرّفنا إليه في إحدى زياراتنا لأحد أديرتهم. ومن حُسن الصدف أنّه حمل اسم معلّمي في سنة "الابتداء".

هنا أجد ربطًا قويًّا بين اسم هذا الكاهن وتوقيت دخوله إلى حياتي، ووفاة معلّمي في الابتداء.

في الثالث عشر من شهر تشرين الثاني وصلنا خبر وفاة معلّمي في الابتداء، وقع الخبر كالصاعقة على نفسي. غير أنّ الله سرعان ما تدخّل ووضع هذا الكاهن في حياتنا.

للمرّة الأولى في حياتي، فتحتُ قلبي وأخبرته عن ألمي ومعاناتي، وفعل كذلك بعض رفاقي. واستطاع هو بحكمته أن يعلب دور المرشد والموجّه. واستعمل معي لغة جديدة في النصح والإرشاد لم يسبق لي أن سمعتُ مثلها. غير أنّ هذه اللغة التي عرفتْ أن تضع "الملح على الجرح" كما يقال، واستطاعت أن تُقنعني في تلك الفترة، ستفقد فعاليّتها بعد سنتَين من رسامتي الكهنوتيّة.

خيار العيش مع المسيح ولأجله شيء، والكترّس في مؤسّسة بشريّة خاطئة شيء آخر. أنتم مستقبل الكنيسة، وعلى عاتقكم سيتمّ التغيير في يوم من الأيام.

شكلّت هذه النصائح دوافع إضافيّة امتزجتْ مع أفكار القدّيس فرنسيس الأسّيزي وروحانيّته، ومنتحتني نوعًا من الأمل بدور سألعبه يومًا، وسيكون له تأثيره الفعليّ داخل المؤسّسة الكنسيّة، الأمر الذي لم يحصل على امتداد عشرين سنة من مثابرتي وسعيي للتغيير والتحسين والإصلاح.

مرّت السنة بطيئة ومثقلة بالأحقاد والنفور والصراع، وتحاشي أحدنا للآخر. وأيقنّا خلالها أنّ لرئيسنا مخطّط خفيّ سنكتشفه لاحقًا ألا وهو الوصول إلى أعلى المراكز.

وصارت علاقاته المشبوهة مفضوحة أمام عيوننا، وفي الوقت عينه أدركنا أنّ لا حيلة لنا للوقوف في وجهه بسبب اتساع رقعة علاقاته داخل أسوار الفاتيكان وخارجها. مَن سيُصدّقنا إذا أخبرناه عن مآسينا؟

أكملنا جلجلة مسرحيّات الصلوات، وشاركناه في تمثيل جميع أدوار التراث الشرقيّ، وأكملنا معه محطّات الهرج والمرج على مشاعر الناس البسطاء. وأغرب ما في الأمر أنّه كان مقتنعًا بما نقوم به.

أكتب هذه الأسطر ويتنازع في داخلي شعور بأنّ ما كان يفعله هو الصحيح وأنّي أنا المريض والمعتوه. وأجد نفسي أبرّر جميع تصرّفاته، لعلّه يعرف المسيح أكثر منّي، ولعلّ الحقيقة أنّ هذا هو دور الكنيسة لا أكثر ولا أقلّ.

مَن يمكنه أن يُخبرني إذا كنتُ فعلاً مهووسًا ومجنونًا واتجنّى على المؤسّسة الكنسيّة وهي برئية؟ ربّما هذا سبب إضافيّ يدفعني إلى ترك الكهنوت.

على المستوى العلمي أكملتُ التحليق، وحصدتُ النجاح، وفي الوقت عينه كنتُ أرى رفاقي وهم يهربون من الجامعة للنـزهة وإضاعة الوقت، حتّى إنّ بعضهم عاد من روما وهو لا يعرف أن يُركّب جملة إيطاليّة مفيدة.

تميّزت أعمالي التطبيقيّة في الجامعة بأبحاث كنتُ أقوم بها محاولاً التوفيق بين الروحانيّات النسكيّة الشرقيّة والروحانيّة والفرنسيسكانيّة وروحانيّة القدّيسة تريزيا الطفل يسوع. ووضعتُ في أحد هذه الأعمال وجهة نظري لدور الحياة الرهبانيّة في عالم اليوم. وكنتُ أتخيّل أن تُطبّق يومًا. لم أعتقد حينها أنّ تطلّعاتي مستحيلة التحقيق.

ومزجتُ هذه العناصر مع الفلسفة الهيجليّة والجدليّة التاريخيّة، ورحتُ أحلم وأحلم بإنجازات رائعة، وبرهبان يعملون في المصانع والمعامل، وآخرون أطبّاء ومهندسون يمارسون جميعهم هذه المهام بمجّانيّة وبساطة.

ونويتُ أن أعرض هذه النظرة والأفكار فور عودتي إلى لبنان، وكأنّي بها كنتُ أهربُ من واقع ميؤوس منه إلى جمهوريّة أفلاطون الطوباويّة.

وأسهم الجحيم الذي كنّا فيه داخل جدران الدير في صياغة هذه الأفكار والرؤى، ووجدتُني أحيا في عالمي الخاص وأُخطّط لبناء مدينتي الحصينة التي لن يتمكّن أحد من هدمها.

بهذه الطريقة غير الواعية، رأيتُني أتخطّى الصراعات الداخليّة ولو بألم ومعاناة وإدمان.

لا أعرف شيئًا البتّة. وإذا ما حاولتُ قراءة حياتي اليوم، فلا بدّ لي من التأكيد على فكرة جوهريّة واحدة: يستحيل على المرء أن يعرف مخطّط الله لحياته وفيها. ربّما يجب على أحدنا أن يحيا عمره كلّه تحت وطأة الشعور بذنوبه الكثيرة، ولكنّه في لحظة لا يعرفها، وفي ساعة يجهلها، قد يكتشف أنّ دموع البشر كلّهم ولو اجتمعت فيه، فلن تستطيع أن تفي بالغرض، ولن تتمكّن من إراحة ضميره الذي أثقلته صور الماضي المظلم.

قد لا تحتاج الكنيسة فعلاً إلى إصلاح أو تغيير، وبالتالي قد لا تحتاج إلى إنسان مثلي لطالما اقتنع، منذ اليوم الأوّل، أنّه أدنس من جميع نفايات الأرض، وأنّ وقوفه على المذبح وملامسته لجسد المسيح الفائق الطاهرة هي الجريمة المطلقة التي لا تُغفر لا على الأرض ولا في السماء.

لماذا خضعتُ لإرادتهم، ولماذا قبلتُ الرسامة الكهنوتيّة؟ لا أزال أبحث عن جواب لهذا السؤال. ولن أعود للوقوف في الحضرة الإلهيّة قبل أن أجد الجواب عن هذا السؤال، حتّى ولو استغرق انتظاري عمري الأرضي بأكمله.

انتهتْ السنة الثالثة، وختمتْ معها فصلاً من حياتي، ليبدأ فصل جديد، تمحورت مشاهده حول قصّة حبّ رومانسيّة بامتياز شابهت بعذوبتها وجمالها قصص العشق في أجمل الروايات العالميّة.

حصلتُ على منحة دراسيّة، لا أذكر كيف ولماذا، للذهاب إلى اليونان، ودراسة اليونانيّة الحديثة في جامعة تسالونيكي.

لبرهة تخيّلتُ أنّني سأعيش حياة المجون والترف، وسأكون حرًّا في كلّ شيء. سأنام كما يحلو لي، وسأسهر حيثما يروق لي، وسأمارس الجنس مع فتاة يونانيّة، وسأعيش متعة اللحظة الحاليّة بعيدًا عن المراقبة والتجسّس.

من أثينا إلى تسالونيكي... أمجاد اليونان... وبطولات الاسكندر... والفلسفة التي عشقتها نفسي. التاريخ العريق، ومجد بيـزنطية الحقيقيّ، وسحر البحر، وجمال الجذر، و"الكيف" والطرب. مرّت جميع هذه سريعة وكأنّها طرفة عين.

عشتُها لحظة أبديّة على الرغم من شحّ المال بين يدينا أنا ورفيقي الذي كنتُ برفقته. انطلقنا بالقطار من روما إلى برينديزي جنوب إيطاليا، ومنها أبحرنا في سفينة كبيرة، وكأنّنا في حلم لم أرغب الاستيقاظ منه.

لن أستفيض في الكلام عن تفاصيل الإقامة والدراسة في جامعة تسالونيكي، بقدر ما سأتوقّف عند ذلك الاختبار الذي لا يزال أثره فعّالاً في داخلي، عنيتُ به قصّة صداقتي بتلك الإيطاليّة التي قُدّر لها أن تنتهي سنة ١٩٩١.



توقّعتُ أن أحيا أجمل اللحظات في بلاد الأمجاد، ولكنّي لم أنتظر أن أقع أسير حبّ عذريّ بفتاة إيطاليّة. وفي ما كنتُ أحوم حول فتاة إسبانيّة أعجبتني وودتُ اتّخاذها صديقة لي، كان القدر يُحضّر قلبي لحبّ واحدة ثانية. وشاءت الظروف أن أقف لأساعدها في حلّ مشكلتها العاطفيّة مع صديق يونانيّ لها قرّر فجأة فكّ ارتباطه بها. تدخّلتُ وتحدّثتُ معه، ولكن بدون جدوى. وافترقا إلى غير عودة، الأمر الذي ترك في نفسها جرحًا بالغًا.

أمضينا معًا فترة الدراسة، وكنّا نتساعد في حلّ الوظائف المفروضة علينا، ونلتقي ونتحادث في مختلف المواضيع. لم أشعر لبرهة أنّ عاطفة خاصّة كانت تفرض نفسها على قلبي.

وبما أنّي كنتُ صريحًا منذ اليوم الأوّل لدخولنا الجامعة، وجاهرتُ أمام جميع التلاميذ أنّي إكليريكيّ وأستعدّ للكهنوت، فقد أسهم هذا الأمر في ولادة جوّ من الثقة بيني وبين مختلف التلاميذ، ومن بينهم طبعًا حبيبتي المستقبليّة.

كانت فتاة مؤمنة جدًّا، ويتمة الأمّ تعيش مع والدها وتهتمّ بشؤونه. وتميّزتْ بالطيب والبراءة والصدق واللطف. ولطالما عاملتني كمرشد وإن كنتُ أصغرها في السنّ.

وعندما حانتْ ساعة الفراق، وانتهى الحلم، وجدتُني، وأنا أودّعها، أقف على درج الحديقة الجامعيّة، وأصرخ بأعلى صوتي والدموع تنهمر من عينَيّ، إنّي أحبك. وبدون أن أشعر هرعتُ نحوها وعانقتها وبكيت، وتواعدنا على اللقاء في إيطاليا.

اتّسمت الأيام التي تلت الوداع بالحزن الشديد، والشوق الكبير إليها. وصرتُ أنتظر ساعة العودة إلى روما لكي اتصل بها ونلتقي ولو كانت المسافة التي تفصل بيننا تزيد عن ستّ ساعات في القطار.

ومع بدء العلاقة بهذه الفتاة، تبدّلتْ أمور كثيرة في داخلي، وبرعمت في ضميري أفكار عن ضرورة التمييز بين الرهبان والكهنة، ووصلتُ إلى الخلاصة التالية: لا يجب على الرهبان أن يقبلوا الكهنوت، ويجب على الكهنة الذين سيخدمون الرعايا أن يكونوا متزوّجين.

لا يمكنني أن أصف حجم الاستقرار النفسيّ الذي بدأتُ أشعر به بعد أن تسلّل عشق هذه الفتاة إلى قلبي. ستكون هناك معاناة من نوع جديد. سنلتقي في روما، وسنتّفق على أنّني لا أرى نفسي إلاّ راهبًا، وهي لا ترى نفسها إلاّ صديقة لي.

وستبدأ المرحلة الثانية من حياتي الدراسيّة، وهي مرحلة التخصّص في مجال التاريخ، والانغماس الكامل الشامل في عالم المعرفة.



خلال فترة وجودي في اليونان، كانت لي محطّة في جبل الرهبان آثوس حيث تعرّفتْ عن كثب على الواقع الرهبانيّ، والتقيتُ بوجوه رهبان من مختلف الأنواع: التقيّ الفاضل، والغريب الأطوار، والفارغ... وعزّزتْ جميع هذه المشاهد انطباعي بوجوب فصل الحياة الرهبانيّة عن العالم عزلاً شاملاً وكاملاً.

وعُدتُ إلى روما لنبدأ سنة جديدة من الآلام والمحن والتجارب.



الفصل السابع

الانفصام الداخلي

لا أزال أكتشف غرابة حياتنا نحن البشر عمومًا وأبناء الشرق بشكل خاص. فنحن لا نعرف أن نترك للصمت مكانًا ليخترق لحظة واحدة من عمرنا الذي نمضيه بالضجيج والصخب والضوضاء، وكأنّنا خلقنا لكي نحطّم "جدار الصوت" الفاصل بين الأرض والسماء. ولولا الليل وقانون النوم الذي لا يمكن لأيّ بشريّ أن يخالف بنوده، لكان أبناء آدم جميعًا مصابين بالصرع.

يلعب النوم دوره في طيّ صفحة من الضوضاء، ويُخلي، فجرًا، مكانه لأنغام ضوضاء تتكرّر وفق الإيقاع اليومي عينه. هذا الإيقاع الذي يسرق منّا كلّ إمكانيّة لمراجعة ذاتيّة لحياتنا وعنها. مَن منّا يمتلك برهة من الزمن للتفكير باسمه، أو للتساؤل عن هويّته، أو للتأمّل في الغاية من وجوده؟ لا اسم لأيٍّ منّا سوى "أنا" متحرّكة تحاول عبثًا أن تفرض وجودها مستخدمة الضجيج والضوضاء كوسيلة فعّالة وناجعة.

وإذا تأمّلنا بضوضاء البشر وضجيجهم، نكتشف أنّ لعبة الدفاع والهجوم هي التي تحرّكهم بطريقة غير واعية. إنّهم، وبدون أيّ سبب، مرغمون، وبدون حتّى أن يعرفوا لماذا، على الدفاع عن أنفسهم. ومجبرون على الهجوم لمجرّد الوهم السابق المبنيّ على أساس فكرة أنّ الآخر سينقضّ عليّ ما لم أسبقه وأنقضّ عليه.

استنادًا على هذه الفرضيّة الهمجيّة العبثيّة الغبيّة تمرّ لقطات حياتنا، وننظر إليها كمشاهد تمرّ أمام عيوننا وكأنّها كرّ وفرّ، وكأنّنا في معركة مع قفير نحل. لا وجود في حواسنا الباطنيّة أو الخارجيّة لأيّ فسحة غير مستثمرة يمكن للمعاني الكلّيّة أن تتسلّل من خلالها لتعبر إلى باطننا.

نتمرّن، دهرًا، على أساليب الدفاع والهجوم، وبطريقة غير واعية حتمًا، وكأنّنا أسرى قانون مفروض علينا لا مفرّ من تنفيذه ومن التقيّد ببنوده، ومضمونه الصراع لأجل الصراع، والخصام لأجل الخصام، والتحدّي لأجل التحدّي، والمواجهة لأجل المواجهة.

وإذا حدث وانسلّ بعض المنطق والوعي إلى باطن أحدنا، وقرّر أن يضرب بعرض الحائط بنود هذا القانون، فابتعدَ عن الناس، ووجدَ لنفسه مكانًا آمنًا، تراهم يهاجمونه ويفرضون عليه العودة إلى الحلبة وإن مرغمًا.

وبحسب مضمون قانون الهجوم والدفاع وآليّة تنفيذه، يجب أن يغيب العقل والمنطق، وأنّ تفرّ الحكمة هاربة إلى عالم آخر، وأن تُخلي جميع الفلسفات القويمة ميدان المعركة للغرائز الحيوانيّة لتمارس هواياتها-القانون-الحتميّ.

ولكي لا تكون هذه الأسطر جملاً سفسطائيّة مصفوفة ومرتّبة بتنسيق همجيّ، ولئلاّ تكون منبثقة عن الغرائز عينها التي قد استفحلت بدورها وعشعشت في نفسي أنا كاتبها، يُفترض بي أن أترك للصمت مكانًا.

وبعد التفكير في طريقة حياتي الماضية حتّى هذه اللحظة، أقول: لأكثر من أربعين سنة مارستُ أنا أيضًا هذه اللعبة بدون وعي. وعندما صحوتُ من كبوتي، وقرّرتُ الصمت، وجدتُني أُهاجم لأعود إلى موقع الدفاع، وبالتالي إلى الحلبة.

لكي تكون مسيحيًّا حقيقيًّا كما يريدك المسيح، أنت مدعوّ إلى الاختباء في مكان بعيد ومعزول حيث الصمت مطلق.

معظم أدعيتنا الفرديّة هجوم: "يا ربّ، خدلي حقّي"، "الله يصطفل فيه"، "الله يردّ عنّك"... وغيرها الكثير... صلوات ترتفع من ميدان المعركة وتستعمل الألفاظ عينها التي تُستعمل في الحروب.

صلواتنا اللتيورجيّة مليئة بالهجوم والدفاع. وكذلك هي عظاتنا التي تستعمل دائمًا الأسلوب الهجوميّ. أحاديثنا هجوميّة وحركاتنا... كلّ ما فينا ليس إلاّ هجوم ودفاع مستمرَّين. إذًا، لا نعرف أن نأتي بما هو غير غرائزيّ. خلاصة القول: بماذا يمكننا أن نشبّه ذواتنا؟ وأيّ اسم نطلقه على أحد أبناء آدم؟ ليس أمامنا إلاّ إلغاء حرف ال"ب" من كلمة "بشر".

هذا نحن. وهذا أنا كاتب هذه السخافة الشبيهة بسخفي.

الانفصام الداخليّ

بدأت السنة الرابعة في روما زاهية معنويًّا في قلبٍ أسرَه عشقٌ لن تكتمل فصول قصّته.

أصبح مجرّد الشعور بوجود إنسان يحبّني حدثًا استثنائيًّا بكلّ ما للكلمة من معنًى.

بعد سنوات من "ال لا أعرف ماذا"، أحسستُ بشيء يُسمّى الحبّ. وانقلب كلّ شيء فجأة، حتّى الأحداث المؤلمة خفّت وطأتها عليّ. ما همّي إذا كان العالم كلّه جهنّم طالما لا أزال أسمع ذلك الصوت المنحدر من عالم الأزل؟ وطالما يمكنني أن ألتقي، ولو خلسة، بذاك الملاك الذي انحدر مثل جبرائيل ودخل حجرة قلبي بدون استئذان؟

بطريقة غير شعوريّة ولا إراديّة تحسّنتْ فوضاي الداخليّة. وعلى الرغم من اللقاءات القليلة التي جمعتني بها سرًّا، شعرتُ بأنّ لكلماتها عن الله والعذراء تفسيرها الذي يتخطّى ببساطته جميع كتب اللاهوت. الله، إذًا، موجود! إنّه هنا على شفتيها وبين يديها، ولا يقبع في السماء! وبالتالي ما نفع جميع دروس تفسير الكتاب المقدّس الماضية والحاليّة؟

إزاء هذا الواقع الجديد، وجدتُني أفتّش عن نوع جديد من المؤلّفات التي يمكنها أن تعلّمني كيفيّة الصلاة. من يوحنّا الصليبي إلى النسّاك الشرقيّين والغربيّين مرورًا بكلّ ما يمتّ إلى عالم الصلاة بصلة. وبدأ نمط جديد من النموّ الروحيّ المرتكز على صلاة القلب.

اليوم بالذات، يمكنني أن أجد في ما حصل تدخّلاً إلهيًّا، إذ بدون وجود تلك الفتاة، وبدون حدوث ذلك التحوّل الداخلي، ما كنتُ لأتمكّن من الصمود داخل ذلك الدير الذي تحوّل في تلك السنة، وفي السنة التي تبعتها، إلى جبهة حرب حقيقيّة، وكأنّ جميع قوى الظلام قد أتت واستقرّت معنا وبيننا.

أعتقد أنّ الدخول في تفاصيل حياتنا الديريّة آنذاك لا يجدي نفعًا. وأشعرُ بأنّ فكري متوجّه نحو سرد الخبرات البنّاءة.

اخترتُ التخصّص في العلوم الكنسيّة الشرقيّة وتحديدًا في التاريخ. وصارت حياتي بأكملها كتب وغرام.

فتحتُ الباب على مصرعيه، وولجتُ إلى عالم الروحانيّات في الشرق والغرب من بوذا إلى أفلوطين... ومن أنطونيوس الكبير ومكاريوس المصري إلى المتصوّفين المسلمين... ومن المتصوّفين في الغرب إلى آخر نمط من أنماط التصوّف في العصر الحديث... وصرتُ أفتّش عن جواب على سؤال واحد أحد: لماذا اختار هؤلاء هذا النمط من الحياة، وكيف وصلوا إلى القداسة أو إلى ما يُسمّى "الاتحاد بالله"؟

وسرعان ما تبيّن لي أن استمراري في الدير أو في الحياة الرهبانيّة، يعني الجهاد للوصول إلى القداسة، وإلاّ لا جدوى من كلّ هذا العناء.

اكتشفتُ، خلال هذه السنة، أنّي أصبحتُ مرجعًا دراسيًّا لجميع رفاقي. وفي الجامعة، تميّزت مداخلاتي بالدقّة والموضوعيّة حتّى إنّي، في أحيان كثيرة، أدهشتُ أساتذتي. وتضاعف النهم العلميّ وبلغ ذروته.

وفي هذه السنة، بدأتُ أحسّ بشعور أبويّ تجاه بعض رفاقي الذين يصغرونني سنًّا. ولكنّي، على الرغم من جميع التحوّلات والإيجابيّات، كنتُ أعيش صراعًا داخليًّا مريرًا، اكتشفتُ بواسطته أنّ لا مكان لأمثالي في الكهنوت، فأنا مجنون وحاقد ومريض وشرير.

بالمقابل، كان جميع رفاقي يصفونني بالمثالي والطيّب والكريم والحنون، وكان حضوري يوحي بالطمأنينة والسلام. أأُصدّق نظرات الناس إليّ بما فيهم حبيبتي؟ أم أُصدّق حقيقتي التي، وإن أخفيتُها عن جميع البشر، فلن تغفل عنّي ولا عن الله؟

على صعيد الحياة الديريّة، كانت الأبواب مشرّعة أمام كبار الشخصيّات من البطريرك إلى الأساقفة وبعض الكرادلة والقناصلة، وكان ديرنا فعلاً قد تحوّل إلى مطعم من فئة الخمسة نجوم، ونحن إلى خدّام بكلّ ما للكلمة من معنًى. وتعاظمت النقمة على رئيسنا لتبلغ الخطوط الحمراء، وهو بدوره كان قد رصّ أساسات بنيانه، وتحوّل إلى جبّار من الخارج، وإلى رجل مهزوم من الداخل، ضعيف ومسكين. بدوري لعبتُ دور البطل المدافع عن المظلومين والمستضعفين.

على صعيد التأثّر بالعلوم، تشكّلت الملامح شبه النهائيّة لشخصيّتي العلميّة: منهجيّ بامتياز، دقيق لدرجة المبالغة، باحث عن التفوّق غير المسبوق.

انتُخبتُ، في الجامعة، منسّقًا بين الطلّاب والإدارة، واستطعتُ أن أُحقّق العديد من مطالب الطلّاب، الأمر الذي وسّع رصيد شعبيّتي.

وفي ما كانت سمعتي الحسنة في تزايد، كانت الفكرة "أنّي مزيّف" تتجذر في أعماقي. نعم، أنا إنسان مزيّف يعيش انفصامًا داخليًّا بين ما يراه الناس فيه من الخير والطيب والعطاء، والشرّ القابع في داخله، ويجرّ ماضيه نحو حاضره.

تصاعد الصراع في داخلي، ووصل إلى ذروته في نهاية السنة الرابعة. ورأيتُني أذوب كالشمع حتّى إنّ أحد أساتذتي سألني عمّا يحدث معي. وانخفض وزني إلى أدنى درجاته، ومال وجهي إلى الشحوب والاصفرار.

وبالعودة إلى الدير، كانت لرئيسنا محطّات نصر عظيم على المستوى الخارجي، فقد فتح أبوابًا جديدة لعلاقاته مع الخارج، تعرّفنا خلالها على إحدى الشخصيّات الرفيعة الشأن في الكنيسة اللاتينيّة. إنّه كاهن لاتيني أسّس أشهر مراكز للعناية بالمدمنين على المخدّرات في إيطاليا. وبلغت شهرته أصقاع الأرض حتّى إنّ المجلس النيابيّ الإيطاليّ أدخل تعديلات قانونيّة سمحتْ له فيها بإخراج بعض المدمنين ممّن سُجنوا، ومعالجتهم في مراكزه. لعب هذا الكاهن العديد من الأدوار في حياتنا الديريّة الداخليّة.

في الواقع، ترك في نفسي أطيب الأثر، بل أُعجبتُ به، وحلمتُ أن أقوم بمثل أعماله في الشرق. لم أتخيّل البتّة أن تمرّ سنوات، وأن أقرأ في صحف سنة ٢٠٠٨ أخبار فضائحه الجنسيّة المثليّة، وتجريده من مهامه الكهنوتيّة وإعادته إلى الحالة العلمانيّة.

أيّ نهاية دراميّة لرجل مثله وبمركزه؟ وأيّ انفصام عاشه طيلة حياته؟ وأين جميع الحسنات التي صنعها في حياته؟ أين شهرته، وأين الله من حياته وفيها؟

وممّا تميّزت به، هذه السنة، كثرة اللقاءات والمحطّات ذات الطابع المزيّف، التي لم تفعل شيئًا إلاّ زيادة كرهي لرئيسنا وحقدي عليه. وصار بنظرنا جميعًا أنموذج الوصوليّ بامتياز. وتنامت الأحقاد بين الطلاّب، وصرنا كالحيوانات المفترسة التي ينتظر الواحد منها الفرصة السانحة للانقضاض على غيره.

انتهت السنة الرابعة، وأتت نتائج امتحاناتي مذهلة. وبدأ الإعداد للسفر إلى الشرق.

الخيانة الأولى

ما إن أشرفت السنة على الانتهاء حتّى لاحَ في الأفق خبر قرار رسامتي الشمّاسيّة الذي، ما إن بلغ صداه إلى أذنيَّ حتّى أُصبت بالجنون، وصرتُ كالهاربين من المصحّ العقلي.

أيّ مجرم أنا؟ كيف أتجرّأ على مثل هذا الصنيع؟

وتحوّلت محاولات إقناعي لقبول الرسامة إلى جدل عقيم، وعندما شعر رؤسائي بأنّ موضوع إقناعي عسير، لجأووا إلى الخداع، وبعد التفاوض معي، اشترطتُ عليهم أن تكون مؤبّدة وألاّ يطرحوا عليّ بالمستقبل موضوع قبول الرسامة الكهنوتيّة.

تحدّد موعد المأساة الأولى والكبرى في حياتي. وبدأت الاستعدادت من روما. ومضى الوقت مسرعًا... حطّت الطائرة في حلب حيث احتشد الأهل لاستقبالنا. وسادت أجواء الفرح في الأسرة. سيعاين والدي ابنه يرتقي إلى الدرجات المقدّسة.

كانت الاستعدادت على قدم وساق. وانطلقنا إلى لبنان للاحتفال بالنذور المؤبّدة أوّلاً. كنّا أربعة، اثنان منّا سيرتقيان إلى الدرجة الكهنوتيّة، وأنا ورفيق آخر سنرتقي إلى درجة الشمّاسيّة الإنجيليّة. والرسامات طبعًا ستكون جماعيّة.

كانت حفلة النذور المؤبّدة أشبه بدفني حيًّا. وفي ما شمل الفرح الجميع، وجدتُني أرتجف من الخوف والهلع وأنا أضع يدي على الإنجيل وأُقسم على حفظ نذور الفقر والعفّة والطاعة إلى الأبد. في تلك اللحظة تأكّدتُ بأنّي الشيطان بذاته، وأنّي أتحدّى الله.

أين أنتِ يا حبيبتي لتستمعي إلى صراخي وتغمريني بحنانك؟ أين أنت يا مرشدي لتمنع هذه الجريمة من الحدوث؟

قُبيل عودتنا إلى الشرق، كنّا قد قرّرنا مصارحة الرؤساء في لبنان بما يحصل معنا في روما، ولكنّنا لم نتجرّأ على القيام بمثل هذه المجازفة. ولم يجسر أحد منّا على التفوّه بكلمة. بالمختصر أضعنا فرصة لتغير ولو جزء من يوميّات معاناتنا. عدنا إلى حلب، ووصل اليوم المشؤوم الذي احتشد فيه الكبار والصغار للمشاركة بالحدث الفريد، وغصّت بهم الكنيسة.

وقفتُ، يغمر كياني شعور بأنّي أخدع الله والناس. وما إن دقّت ساعة الصفر، وبدأت رسامتي، حتّى ارتعش جسمي هلعًا، وأظلمت الدنيا في عينيّ. وراحت كلمات القدّيسين ونصوص القوانين الكنسيّة تمرّ نُصب عينيّ، ومضمونها عاقبة مَن يستهين بالقدسيّات.

وحان وقتُ تسليمي الجسد الإلهي بيدي، وإذ بشعور بشع يُداهمني: إنّي أغتصب أطهر ما في الوجود! من شدّة خوفي وفزعي رحتُ ألعق ذرّات القربانة التي ربّما تكون قد لصقت بكفّي.

انتهت الرسامة، وحان وقت الاحتفال والطرب. الكلّ سعيد. الآباء والأمّهات يفتخرون بأبنائهم، والكلمات رنّانة والخطابات روحيّة بامتياز... وأنا جالس كالمجرم الهارب من وجه العدالة.

مضى أسبوع، واستفقتُ ممّا حسبتُه كابوسًا، وإذ هو حقيقة مرّة. ولم يخطر ببالي أنّ أدوارًا جديدة تنتظرني في روما، وأنّ مسارح المذابح تنتظر فنّانًا يُتقنُ دوره، ويعرف أداء الطقوس بصوت واضح ونبرة قادرة على اختراق أفئدة الحضور.

تعاظم في داخلي النفور من والدي، واحتملتُ كلماته ونصائحه التي أحسستُ أنّها سهام تمزّق صفحات تاريخي الحافل بمآس لا يعرف عنها إلاّ ما يتصوّره في مخيّلته.

لمستْ والدتي حزني العميق بدون أن تتجرّأ على التعليق.

وحزمنا حقائبنا، وأقلعتْ بنا الطائرة باتجاه روما.

سنتي الأخيرة في روما

لا أزال أبحث عن إرادة الله في حياتي. ولا تزال الأسئلة التي لا جواب لها تُذيقني شتّى أنواع العذاب الداخليّ. أيُعقلُ أن يكون الله قد استجاب صلاة والدي ونذره؟ أيُعقل أن يختار الله إنسانًا رغمًا عنه؟ وإن صحّت هذه الافتراضات، فأين الخيار الشخصيّ؟ وأين احترام الله لإرادة الفرد؟

جميع ما قرأته في الكتب عن موضوع الاختيار الإلهيّ يجعلني على قناعة تامّة بأنّ هذا النوع من الاختيار يتطلّب قبول الشخص المختار. مَن قال لك، يا الله، أنّي نضجتُ بما يكفي لكي أُفكّر في اختيارك لي، وأناقش في قرارة ذاتي مدى استعدادي لخوض عباب مثل هذه المغامرة!

أيُعقل أن يكون اختيارك عنيفًا ومصحوبًا بالظلم والطغيان؟ لا يمكن أن أؤمن بالمثل القائل: "يلّي بيحبّو الله بيجربو"، فمثل هذه الأمثلة ذات الطابع الشعبيّ تحتوي على كفر حاشى أن ينطبق على الله. وحاشى أن يكون الله ساديًّا أو مشغوفًا بمعاينة البشر يتألّمون. مثل هذه القناعات لا تمتّ إلى المسيحيّة بصلة.

ويبقى السؤال مفتوحًا أمام كلّ مسيحيّ ملتزم يفكّر في الغاية من خلقه، ووجوده على الأرض، وإلاّ نقع في معضلة الصدفة العبثيّة التي لا يمكنها الإجابة على كمٍّ هائل من الأسئلة، من أبسطها إلى أكثرها تعقيدًا. هل ألتقيتُ بكَ أو بكِ صدفة، أم هناك حقيقة تدبير إلهيّ جمعنا؟

وإذا كان اجتماع الصدف المتتالية يشكلّ بحد ذاته مبدأ التدبير الإلهي، فأين التدبير الإلهيّ في التقاء الصالحين بالطالحين، وسقوطهم ضحايا لانحرافاتهم؟ ما هو المخطّط الإلهيّ من ولادة أفلاطون أو أرسطو وسيطرة فكرهما على العالم لأجيال؟ وما هو المخطّط الإلهيّ من سقوط الممالك والأمم؟ ومن تراجع المسيحيّة؟ ما هو المخطّط الإلهيّ في حياة إنسان تربّى في بيئة منحرفة أنتجت منه مجرمًا وقاتلاً؟

ما هو التدبير الإلهيّ في حياة عدد لا يمكن إحصاؤه من أناس لا يعرفون لماذا وجدوا؟

وإذا استرسلتُ في طرح الأسئلة، قد لا تكفيني آلاف الصفحات. بالمختصر مثل هذه المعضلات كانت من بين الأسباب الجوهريّة التي أنتجت الإلحاد المعاصر. غير أنّنا يمكن أن نجد الإلحاد، بجميع فروعه، بعدًا ماورائيًّا، ولمسة إلهيّة، ولكنّ العصيّ عن التبرير هو عصر الاستهلاك الذي أتلف ضمائر البشر، وحوّلهم إلى أدوات لا مكان للقيم في قوائم حياتهم اليوميّة. أهذا أيضًا مخطّط له غاياته في العقل الإلهيّ؟

انطلاقًا من هذه القراءة، أعود إلى السنة الخامسة لوجودي في روما، وفيها يمكنني أن أجد التدبير الإلهيّ من خلال اتساع معارفي وتحصيلي العلمي، وهما بحدّ ذاتهما لا يزالان أيضًا موضع تساؤل عندي، إذ قد أسهما في تحويلي من إنسان بسيط إلى معقّد لا يُشبعه النهم إلى المعرفة. ألم يكن أسهل على الله أن يخلقني طيرًا أو دودة، لكان وفّر على ذاته وعليّ وعلى كنيسته شخصًا غريب الأطوار؟

ولو لم يخلق الله البشر، لما كانت إشكاليّة الثواب والعقاب، والخير والشرّ، والتجسّد والفداء، لتتعرّض جميعها إلى تشكيك المفكّرين وبعض رجال الكنيسة المعاصرين.

وجدتُ نفسي أسير واقعي الجديد، وبالتالي لا مجال للعودة إلى الوراء. المهمّ هنا، عدم التورّط بالكهنوت.

من ناحية ثانية، شعرتُ باستحالة وقوفي على المذبح وأنا لا أزال ملطّخًا بالخطايا والمآثم. لأجل ذلك، اتّخذتُ قرار إصلاح سيرتي خلال الفترة المتبقيّة لي في روما. علمًا بأنّي لم أكن بعد قد عرفتُ أنّها سنتي الأخيرة، وأنّني لن أبقى لأكمل أطروحة الدكتورا.

باشرتُ بتكثييف صلاتي الفرديّة، وصرتُ أنتظر إشارة من الله تدلّني على قبوله لتوبتي، ولكنّها لم تصل البتّة. تطلّب منّي الأمر وقتًا طويلاً لأفهم أنّ التصالح مع الله يفترض التصالح قبله مع الذات. بكلّ أسف كانت لقاءاتي بمرشدي متقطّعة بسبب بعده الجغرافيّ عن روما من جهة، وبسبب شعوره المتنامي بنفور رئيسنا من حضوره بيننا. كذلك كان الحال مع حبيبتي البعيدة جدًّا عن روما.

أمضيتُ فترة ستّة أشهر من الصلاة، ومحاولة التوبة، غير أنّ الحياة الديريّة كانت العائق الأكبر أمام أيّ تقدّم داخليّ. فقد وصلت حالة الهستيريا الجماعيّة إلى ذورتها، وبدا التوصّل إلى هدنة مستحيلاً. وخرج إلى العلن ذلك العداء الذي طالما سترته الصدور. وأصاب طاعون البغضاء معظم الطلاّب.

في غضون ذلك، كنتُ منكبًّا على العمل بأطروحتي، وكثُرت تنقّلاتي بين أرشيف مجمع انتشار الإيمان، وأرشيف العديد من الرهبانيّات الغربيّة التي لعبتْ إرساليّاتها أدوارًا في الشرق. درستُ كمًّا كبيرًا من الوثائق التي تعود إلى ما بين السنوات ١٦٢٢ و١٧٢٤، ولخّصتُ محتواها، وصنعتُ لها فهرسًا.

من حسنات هذه المرحلة أنّي اكتسبتُ صداقة بعض الطلاّب اليونانيّين والفرنسيّين. ومع أصدقائي اليونانيّين، كنتُ أجد التفريغ والمتعة، إذ كنّا نمضي بعض الوقت في الاستماع إلى الأغنيات اليونانيّة والتركيّة والعربيّة. وفي إحدى الأمسيات، لا أذكر الأسباب تحديدًا، توجّهتُ إلى مكان إقامة أحد الأصدقاء اليونانيّين، وكنتُ على شفير الانهيار نفسيًّا ومعنويًّا، ومضى الوقت مسرعًا أحرقنا خلاله السيجارة تلو الأخرى، وبالغتُ في شرب الكحول، حتّى إنّي فقدتُ الوعي واضطرّ لأن يطلب سيارة أجرة لتقلّني إلى الدير. دخلتُ والثمل واضح عليّ، ولم يجسر رئيسي على النطق بكلمة.

كما وصلتُ إلى مرحلة من الاستهتار واللامبالاة، فقدتُ معها كلّ لياقة وأدب مع رئيسنا، الأمر الذي أسهم في منح بعض رفاقي جرأة للسير على خطاي. وما إن أوشكتْ السنة على نهايتها حتّى واجهناه علنًا، وصرحّنا له بكرهنا له ونفورنا منه، الأمر الذي أربكه جدًّا.

وما إن انقضى النصف الأوّل من السنة، حتّى بدأتُ أهوي كأوراق الخريف، وطلبتُ العودة فورًا إلى لبنان: لا أريد إكمال دراستي ولا نيل الشهادات، جلّ ما أريده هو العودة إلى مكان آمان، وكأنّي نسيتُ التاريخ الحافل في ذلك الدير بلبنان!

وبعد تلك الفترة من الصلاة ومحاولة التوبة، رأيتُني أسقطُ سريعًا ومجدّدًا في عالم الشهوات، ووصل بي الأمر إلى مطالبة مرشدي بأن يأذن لي بالذهاب لمضاجعة إحدى المومسات. جُنّ مرشدي واستغرب طلبي، وراح يتحدّث إليّ بلغة الحبّ والدفء، وقال لي: لو حصل أن قادك العشق وحبيبتك إلى علاقة جنسيّة، فلا مانع عندي، أمّا أن تذهب إلى مومس، فهذا طلب مرفوض جملة وتفصيلاً. تجادلنا مطوّلاً، ولكن بدون أن أشعر بتحسّن ملحوظ.

تخونني الذاكرة، وأحاول عبثًا أن أستعيد ذكريات الأحداث التي حصلت في فترة النصف الثاني من السنة. أذكر انشغالي الكامل في إعداد أطروحتين ونفسيّتي المرهقة، وجسمي الخائر القوى. فقدتُ الشعور بأيّ معنًى لأيّ شيء. وصرتُ أتساءلُ لماذا كلّ هذا العناء من أجل تحقيق التفوّق العلميّ؟ وما الجدوى من الثقافة والعلم طالما أنّهما لن يدخلان السعادة إلى حياتي! ستتمحور أولى مقالاتي، بعد عودتي إلى لبنان، حول موضوع العلم الذي لم يجرّني إلاّ إلى مزيد من المعاناة والضياع.

خلال هذه الفترة المتبقّية لي في روما، حسمتُ أموري في موضوع العودة النهائيّة إلى لبنان.

ورأيتُ رئيسنا يحاول التقرّب منّي وكأنّه كان يخشى من أن أجاهر، بعد عودتي إلى لبنان، بما كان يحصل معنا في روما. عرض عليّ فكرة السفر إلى اليونان مرّة ثانية قبل التوجّه إلى لبنان. ربّما كانت تلك محاولة لاستعادة ثقتي المفقودة به. ويا ليتني رفضتُ، إذ إنّ رحلتي الثانية إلى اليونان قسمت ظهر البعير بيننا، وصبّت في قلبي حمم حقد مظلم تجاهه ورغبة في تدميره لم تخمد ألسنة لهبها إلاّ سنة ١٩٩٨. ولسوف يعرف أعداؤه أن يستغلّوا حقدي هذا، ويزجّوني في معركة ضارية معه، خرجتُ منها محطّمًا، وحقّق فيها نصرًا كاملاً.

بانتْ ملامح البرنامج الصيفيّ. سنكون ثلاثة في اليونان، أنا ورئيسي ورفيقه المدلّل، زميلنا الذي لعب دور الخائن بنظرنا، وباع رفاقه من أجل إرضاء الرئيس، فحصل مقابل ذلك على المال والحريّة وكسب كرهنا إلى الأبد. وستكون حياته هو أيضًا ضياعًا وخيانة تلو الخيانة. وسوف يُرسم كاهنًا على الرغم من معارضة كثيرين من المسؤولين في لبنان، وسوف يترك الرهبانيّة ويعود إلى جوار الرئيس الذي لم ينفصل عنه بالجسم إلاّ لفترة قصيرة، وهناك سيترك الكهنوت ويتزوّج، ثمّ يفشل زواجه ويصل إلى الطلاق، لنراه اليوم مجدّدًا، ومن بعد تطليقه زوجته، يعود فيُقبل في إحدى الأبرشيّات.

أهي الأقدار الساخرة، أم هي تتمّة لفصول تاريخنا الحافل بالدرامى؟ أين دعوة الله في حياة مثل هذا الإنسان؟ لا جواب!

قبل انتهاء الفصل الدراسيّ الثاني، وصل نبأ قرار ترقية البعض منّا إلى الدرجة الشمّاسيّة، والبعض الآخر إلى الدرجة الكهنوتيّة. وإذ باسمي في رأس القائمة. واتّضحتْ لي مسرحيّة الخداع الذي مارسه عليّ المسؤولون قبل أقلّ من سنة ليقنعوني بقبول الدرجة الشمّاسيّة. وصرتُ كالثور الهائج الذي لا يقوى أحد على ضبطه. لم يجد رئيسنا أمامه إلاّ خيار الاتصال بمرشدي لعلّه يستطيع إقناعي.

خلال هذه الفترة، كنتُ قد بدأتُ أعيش أزمة اقتراب موعد الانفصال النهائيّ عن حبيبتي. واختلطتْ المشاعر في داخلي، من النفور إلى الحقد، ومن العاطفة والدفء والحنان إلى البكاء والدموع، ومن الدخان والكحول إلى استفحال الشهوات والغرائز. ولسوف أواجه المسؤولين بعد سنوات، وأضعهم أمام ضمائرهم، وأُسألهم: بأيّ ضمير مسؤول أقدمتم على رسامة شخص مثلي تعرفون مسبقًا أنّه فاسد وشرير؟

والأسوأ من كلّ ذلك أنّ جميع رفاقي فشلوا بعد رساماتهم، فهذا ترك الكهنوت وتزوّج، وذاك انتقل من رعيّة إلى أخرى، ومن أبرشيّة إلى أخرى بدون أن يجد مكانًا يقنع به، وذاك لا يزال يعيش حياته ضائعًا لا يمارس أيّ مهمّة رعويّة أو روحيّة، وآخر أفلتَ اللجام لشهواته وغرائزه لتتحكّم بحياته.

يشهد الله أنّي أقول الحقيقة، ولو أردتُ أن أضع قائمة بالأسماء وأرفقها بجداول تحتوي على قصّة كلّ منهم، لكان ذلك بمثابة إعلان حرب لا هدنة فيها على كلّ ما يمتّ إلى الضمير بصلة. إنّي أدعوهم باسم المحبّة التي جمعتني بهم إلى التحلّي بالشجاعة، واتخاذ قرار ترك الكهنوت، لعلّهم يستطيعون التوصّل إلى التصالح والسلام مع ذواتهم.

مرّتْ الأسابيع الأخيرة من إقامتي في روما، ووجب أن أُركّز كلّ اهتمامي على أطروحتي، ولكن كيف؟

طال الجدل مع مرشدي الذي جعل يُفهمني أنّي سأكون كاهنًا متميّزًا وقدّيسًا، وسأستقطب الشباب وأجمعهم، وسأحصل على محبّة الناس وتقديرهم. غير أنّ كلماته لم تلقَ صدًى في نفسي. وممّا زاد الأمور تعقيدًا موضوع اختيار الإشبين الذي سيكون رئيسنا! لو كنتُ أعرف العاقبة، لتركتُ حتّى لو لعنني والدي وطردني من بيته لأمضي الباقي من عمري أتسكّع على الطرقات.

على أمتداد أربعة أشهر من الجدل العنيف والمتواصل، لم أتوصّل إلى إقناعهم بالعدول عن قرار رسامتي.

حان موعد تقديم امتحانات نهاية السنة والتخرّج. قدّمتُ جميع امتحاناتي بما فيها أطروحتي، ولا أعرف كيف استجمعتُ قواي لتقديمها. وأتت نتائج الامتحانات لتُظهر تفوّقي.

قُرع جرس العودة إلى الشرق. حزمتُ أمتعتي، وفي الموعد المحدّد توجّه كلّ منّا إلى جهة لنعود ونجتمع في الشرق.

الخيانة العظمى

لم تنفع محاولات تأجيل موعد رسامتي. وصرتُ أمام أمر واقع. ما الذي يمكنني القيام به لتغيير هذا القدر المحتّم؟

أمضيتُ أيامًا وأنا أسترجع لحظات وداع حبيبتي. أدخل غرفتي لأبكي بدون هوادة. ولفرط ما كان في داخلي من أسباب ومسبّبات للألم والبكاء، وجدتُني قد فقدتُ إمكانيّة التمييز بين ألم نفسيّ وآخر روحيّ وثالث جسديّ. غير أنّ ذروة الألم تمثّلت في عذاب الضمير: كيف يمكنني الرضوخ إلى الأمر الواقع؟

وفي ما كان موعد الرسامة قد حُدّد، وبُوشر بطباعة بطاقات الدعوة، كنتُ أخدع نفسي وأتخيّل حدوث معجزة تُنقذ الموقف في اللحظة الأخيرة. وبدأتْ مناورة جديدة لإقناعي بالتسليم للأمر، ألا وهي أن أقبل بالرسامة وفق الشروط التي أضعها. لم أعرف حينها أنّ مثل هذه الشروط ستبقى كلامًا يتبدّد مباشرة لخلوّه من أيّ منطق عقليّ أو حجّة قانونيّة. وجاء شرطي الوحيد وكأنّه إقناع لذاتي تهدف إلى التخفيف من حجم المصاب الجلل. أجبتُ: شرطي ألاّ أُرسل للخدمة في الرعايا، وأن أُمضي حياتي راهبًا بسيطًا في الأديرة. لم أنتبه حينها إلى أنّ شرطي هذا لن يكون سلاحًا بيدي في يوم من الأيام. ولم أُلاحظ أنّ قبواهم إياه كان نابعًا من معرفتهم السابقة بخلّوه من أيّة صبغة قانونيّة، وإلاّ لكانت الرسامة المشروطة باطلة. وفي جميع الأحوال أعتبرها باطلة.

على الرغم من جميع الحجج المطمئنة والذرائع الواهية التي حاولتُ عبثًا تقبّلها في داخلي، تمثّل أمامي مشهد يوم الدينونة الرهيب، ووقوفي أمام الديان للمحاكمة، والحكم عليّ بالنار المؤبّدة لتجاسري على الاستهانة بالقدسيّات. وضاعفتُ توسّلي إلى الله لكي يُبعد عنّي هذه الكأس.

كانت الرياضة الروحيّة السابقة للرسامة صامتة ومقرونة بالنحيب والبكاء، وصارتْ دموعي سيلاً جارفًا يتدفّق طوال النهار والليل.

في الجهة الأخرى، كانت التحضيرات ليوم الرسامة على قدم وساق. وغمر والدي شعور بالغبطة لا مثيل له. ستُبصر عيناه ابنه كاهنًا، وسيشمخ جبينه افتخارًا أمام الناس. ووجب عليّ تصنّع الفرح والهدوء، والتحلّي برباطة الجأش، والتمرّن على الخطوات الواجب اتباعها يوم الرسامة.

كنّا اثنان، أنا ورفيقي الذي رُسم شمّاسًا معي. غير أنّ الأضواء كانت مسلّطة عليّ أنا وحدي، وذلك بسبب نباهتي وسرعة بديهيّتي، واتقاني للنصوص والحركات، وتناغمي مع جوقة الترتيل.

حتّى اللحظة الأخيرة كنتُ أظنّ أنّي في حلم.

على صعيد عائلتي، كانت تحضيرات لإقامة حلفة كوكتيل خاصّ بالأسرة ودعوة الأقرباء والأصدقاء ممّن لم توجّه إليهم الدعوة إلى حفل الغداء الذي أقامته الرهبانيّة احتفاءً بالمناسبة.

استيقظتُ صباح ذلك الأحد يكتنفني الغمّ ويُطبق على أنفاسي. وتوجّهتُ قبل الموعد إلى كنيسة السيّدة في ساحة فرحات التي غصّت باكرًا بالمصلّين. ودقّت الساعة، فوجدتُني أواجه الخيانة العظمى التي لم يُشبهني فيها أحد حتّى يهوذا الإسخريوطيّ. ولشدّة الحزن، كنتُ أشهقُ من البكاء، وبلّلتْ دموعي المذبح ويد المطران، وسال المخاط من أنفي.

إزاء المشهد اغرورقتْ عيون كثيرين من الحاضرين بالدموع، غير أنّهم ظنّوني أبكي من فرط البجهة، ولم يعرف أحد منهم أنّ دموعي هذه تضاهي دموع بطرس بعد نكرانه للمسيح.

وعندما ركعتُ وراح الأسقف يتلو على رأسي الصلوات الخاصّة بالرسامة، كنتُ أبتهلُ إلى الله أن يصفح عنّي، ويغفر لي هذه الجريمة العظمى التي أرتكبها بحقّ ابنه يسوع المسيح.

أمضيتُ عشرين سنة من حياتي الكهنوتيّة، وأنا أبتهل إلى الربّ، في كلّ قدّاس، أن يغفر لي تجاسري على الوقوف أمام المذبح وملامسة جسده الطاهره ودمه الكريم.

انتهتْ رتبة الرسامة، وكان بعدها غداءٌ حافل، وخطاباتٌ وقصائد، ثمّ حفلة كوكتيل مساءً جمعتْ أفراد أسرتي مع الجيران والأصدقاء.

وعدتُ إلى المنـزل لأفكّر بحجم جريمتي التي لن تُغفر مهما مارستُ من التقشّفات والإماتات وأعمال البرّ.

وتجاوبًا مع رغبتي بعدم الخدمة في الرعايا، وعملاً بأحكام القانون الذي لا يُجيز تعيين الكاهن المرسوم حديثًا في الرعايا، صدر قرار تعيني مساعدًا لرئيس الإكليريكيّة الكبرى في لبنان، ليضعني أمام مسؤوليّة هائلة.

أسدل الحادي والعشرين من تشرين الأوّل ستاره على حياتي الماضية التي لن أرى فيها، في يوم من الأيام، شيئًا من الصلاح والخير والتقوى، لأجد نفسي أمام لقبي الجديد "أبونا" الذي طالما كرهتُ أن يُوصف به إنسان، فكيف يمكنني أن أتقبّل توجيهه إليّ!

سأُحاول التعايش مع واقعي الجديد. غدًا يوم جديد لإنسان ارتدى حلّة جديدة سترتْ جرائمه بسوادها.

لا للدخان، ولا للكحول، ولا للسهر، ولا لأيّ نشاط علمانيّ قد يُشكّك الناس... هذه أولى قراراتي...



خاتمة

أنهيتُ الجزء الأوّل من اعترافاتي، وأرجو ألاّ أكون قد شكّكتُ أحدًا بما سطّرته يديّ. وأطلب المغفرة من الجميع.

سأحاول كتابة الجزء الثاني بأسرع وقت. ولكنّي سأنتظر ردّات الفعل على هذا الجزء، فإذا جاءت النتيجة سلبيّة وأدّت إلى عثرة القارئين، لن يكون ثمّة تكملة. وفي حال، جاءت إيجابيّة، يمكن للجزء الثاني أن يصدر.



للمؤلّف

١- **فهرس مخطوطات مكتبة أبرشيّة حلب المارونيّة**، المجلّد الأوّل المخطوطات ١-٣٠٠، حلب، ٢٠١٨.

٢- **حِكَم ذيفتروس**، مجموعة قصصيّة، طبعة أولى، حلب، ٢٠١٨.

٣- **هوذا الرجل**، الإطار التاريخيّ لحياة يسوع المسيح، حلب، ٢٠١٨.

٤- **السنكسار الأنطاكي للبطريرك مكاريوس الثالث ابن الزعيم (١٦٤٧-١٦٧٢)**، سلسلة التراث الأنطاكي، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية – لبنان، ٢٠١٠. بالاشتراك مع المطران ميشال أبرص.

٥- **رتبة تكريس الشموع يوم عيد دخول الربّ إلى الهيكل**، سلسلة اليوبيل المئوي الثالث للرهبانية الباسيلية الحنّيّة، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية لبنان، ٢٠٠٨. بالاشتراك مع الأب روجيه أخرس وغادة كمال خوري.

٦- **أقدم كنيسة رعويّة للروم الكاثوليك في الشرق**، كنيسة القدّيس جاورجيوس – زوق مكايل، المطبعة البولسيّة، ٢٠٠٥.

٧- **الجزء المظلم من وجهك**، سلسلة محبّة بدون حدود، زوق مكايل لبنان، ٢٠٠٤. مجموعة قصصيّة بالاشتراك مع مراي صعب.

٨- **قطّان المطران باسيليوس**، لمحات من حياة نيوفيطوس نصر أسقف صيدنايا، طبعة أولى، مطابع جوزيف رعيدي، بيروت، ٢٠٠١. بالاشتراك مع الأرشمندريت بولس نزها.

٩- **وثائق هامّة في خدمة كنيستنا الأنطاكيّة**، مَن صنع الانفصال سنة ١٧٢٤، منشورات النور، بيروت، ٢٠٠٠. بالاشتراك مع زياد الخوري.

الترجمات

١- **الطوباويّة ماري دو لا باسيون مؤسّسة رهبانيّة الفرنسيسكانيّة مرسلات مريم**، الجزء الثاني، الفصول ١١-٣٠، طبعة أولى، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية-لبنان، ٢٠١٨، بالاشتراك مع الأخت سمية قرة كلة.

٢- ألكسندر مان، **يسوع معلّم الناصرة**، منشورات النور، بيروت.

٣- **نخبة مختارة من حكم الأقدمين**، سلسلة حكميّات ٣، طبعة ثانية، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية-لبنان، ٢٠٠٥.

٤- **خطاب إلى المعلّم أوريجينوس**، منشورات النور، بيروت ١٩٩٩. ترجمة عن الفرنسية واليونانيّة بالاشتراك مع ناتاشا يازجي.